

نوفيق الحكيم

ليلة الزفاف

مسلمة الطبع والنشر
مكتبة الآداب وطبعها بإجازة سنة ١٩٧٧
الطبعة السنوية
أسكنة الشاويدي بطرابلس ليبيا

توفيق الحكيم

أما نشأته المرحومة
والخروج المبكر

به
مع الحكيم في أعجاب

ليلة الزفاف

سلسلة الطبع والنشر
مكتبة الآداب ومطبعها بالجاميزت ٢٠٧٧٧
المطبعة النموذجية
سكة الشاويحي للعلامة الجديدة

كتب المؤلف ... نشرت باللغة العربية

- | | | | |
|------|-------------------------------|------|-----------------------------|
| ٢٣ - | يوميات نائب الأرياف ١٩٣٧ | ١ - | محمد . ١٩٣٦ |
| ٢٤ - | عصفور من الشرق ١٩٣٨ | ٢ - | شهرزاد . ١٩٣٤ |
| ٢٥ - | سليمان الحكيم ١٩٤٣ | ٣ - | عودة الروح ١٩٣٣ |
| ٢٦ - | زهرة العمر . ١٩٤٣ | ٤ - | أهل الكهف ١٩٣٣ |
| ٢٧ - | الرباط المقدس ١٩٤٤ | ٥ - | تحت شمس الفكر ١٩٣٨ |
| ٢٨ - | شجرة الحكم . ١٩٤٥ | ٦ - | أشعب . . ١٩٣٨ |
| ٢٩ - | الملك أوديب . ١٩٤٩ | ٧ - | عهد الشيطان . ١٩٣٨ |
| ٣٠ - | { مسرح الجنم
(٢١ مسرحية) | ٨ - | براكسا: أو مشكلة الحكم ١٩٣٩ |
| ٣١ - | فن الأدب . ١٩٥٢ | ٩ - | راقصة المعبد . ١٩٣٩ |
| ٣٢ - | عدالة وفن ١٩٥٣ | ١٠ - | نشيد الإنشاد . ١٩٤٠ |
| ٣٣ - | أرني الله . ١٩٥٣ | ١١ - | حمار الحكيم . ١٩٤٠ |
| ٣٤ - | عصا الحكيم ١٩٥٤ | ١٢ - | سلطان الظلام ١٩٤١ |
| ٣٥ - | التعادلية . ١٩٥٥ | ١٣ - | من البرج العاجي ١٩٤١ |
| ٣٦ - | ليزيس . . ١٩٥٥ | ١٤ - | تحت الصباح الأخضر ١٩٤٢ |
| ٣٧ - | الصفقة . . ١٩٥٦ | ١٥ - | تأملات في السياسة ١٩٥٤ |
| ٣٨ - | { المسرح النوع
(٢٠ مسرحية) | ١٦ - | بجاليون . ١٩٤٢ |
| ٣٩ - | السلطان الجائر ١٩٦٠ | ١٧ - | الأيدي الناعمة ١٩٥٤ |
| ٤٠ - | يا طالع الشجرة ١٩٦٢ | ١٨ - | لعبة الموت . ١٩٥٧ |
| ٤١ - | الطعام لكل فم ١٩٦٣ | ١٩ - | حماري قال لي . ١٩٣٨ |
| ٤٢ - | بجن العمر . ١٩٦٤ | ٢٠ - | أشواك السلام ٧٥١٩ |
| ٤٣ - | شمس النهار . ١٩٦٥ | ٢١ - | رحلة إلى الغد . ١٩٥٧ |
| ٤٤ - | مضير صرصار ١٩٦٦ | ٢٢ - | رحلة الربيع والحريف ١٩٦٤ |

كتب المؤلف نشرت في لغة أجنبية

- | | |
|---|--|
| <p>ترجم ونشر في باريس عام ١٩٣٦ بمقدمة لجورج
 لسكاوت عضو الأكاديمية الفرنسية في دار نشر (نوفيلور
 ليديسيون لاتين) وترجم إلى الإنجليزية ونشرت مختارات
 منه في دار النشر (ييلوت) بلندن ثم في دار النشر
 (كراون) بنويورك في عام ١٩٤٥</p> | <p>شهر زاد</p> |
| <p>ترجم ونشر بالروسية في ليننجراد عام ١٩٣٥
 وبالفرنسية في باريس عام ١٩٣٧ في دار «فاسكيل» للنشر،
 وبالإنجليزية ، نشرت مختارات منه في لندن عام ١٩٤٢</p> | <p>هودة الروح</p> |
| <p>ترجم ونشر بالفرنسية عام ١٩٣٩ (طبعة أولى)
 وفي عام ١٩٤٢ (طبعة ثانية) وترجم ونشر بالعربية عام
 ١٩٤٥ وترجم ونشر باللغة الإنجليزية في دار (هارفيل)
 للنشر بلندن عام ١٩٤٧ وترجم إلى الإسبانية في مدريد
 عام ١٩٤٨ وترجم ونشر في السويد عام ١٩٥٥ وترجم
 ونشر بالألمانية عام ١٩٦١ وبالرومانية عام ١٩٦٢
 وبالروسية عام ١٩٦١</p> | <p>يوميات نائب
 في الأرياف</p> |
| <p>ترجم ونشر بالفرنسية عام ١٩٤٠ بتهديد تاريخي
 لجانستون فييت الأستاذ بالكوليج دي فرانس ثم ترجم
 إلى الإيطالية بروما عام ١٩٤٥ وبعملانو ١٩٦٢ وبالأسبانية
 في مدريد ١٩٤٦</p> | <p>أهل الكهف</p> |

تابع الكتب التي نشرت باللغة الأجنبية

- { تصفح من الشرق . ترجم ونشر بالفرنسية عام ١٩٤٦ طبعة أولى . وأعيد
 نشره في باريس عام ١٩٦٠ في طبعة جديدة .
- { هدالة وفن ترجم ونشر بالفرنسية في باريس بعنوان « ذكريات
 قضائي شاعر » عام ١٩٦١ .
- : ترجم ونشر بالفرنسية في باريس عام ١٩٥٠
- : الملك أوديب
- : سليمان الحكيم
- : نهر الجنون
- : جرف كيف يموت
- : بالخرج
- { بيت النمل وبالإيطالية في روما عام ١٩٦٢
- : الزمار : ترجم ونشر بالفرنسية في باريس عام ١٩٥٠
- : مشكلة الحكم : ١٩٥٤
- : السياسة والسلام
- : الشيطان في خطر
- { بين يوم وليلة وبالأسبانية في مدريد عام ١٩٦٣
- : الغش الهادئ : ترجم ونشر بالفرنسية في باريس عام ١٩٥٤
- : تأريد أن أقتل

(٦)

تابع الكتب التي نشرت باللغة الأجنبية

الساحرة	: ترجم ونشر بالفرنسية في باريس عام ١٩٥٤
دقت الساعة	: » » » » » » » »
أنشودة الموت	} وبالأسبانية في مدريد عام ١٩٦٣
لوحرف الشباب	: ترجم ونشر بالفرنسية في باريس عام ١٩٥٤
الكنز	: » » » » » » » »
رحلة إلى القند	: » » » » » » » »
لعبة الموت	: » » » » » » » »
السلطان الحائر	} وبالإيطالية في روما عام ١٩٦٤

(الترجمات الفرنسية من دار نشر «نوفيل إيديسيون لاتين» باريس)

مقدمة

بعض القصص التي يضمها هذا الكتاب قد بنى على حوادث وقعت بالفعل في مجتمعنا ، كما أن بعضها بنى على ما يحدث في الحياة الإنسانية . وهناك فرق بين تصوير المجتمع وتصور الحياة ، فمصور المجتمع لا بد أن يتقيد بما رأى وشاهد وعرف ، إذا أراد أن يكون صادقا ، فلا ينبغى له التعرض لبيئة أو طبقة لا يعرفها .

ملاحظة الواقع شرط من شروط التصوير الاجتماعي ... أما تصوير الحياة فأمر آخر ، لأن الحياة أشمل من الواقع ... فالحياة الإنسانية يدخل في نطاقها الواقع وغير الواقع ، لأن حياة الإنسان - على خلاف حياة النبات والحيوان - لا تقف عند حد الوجود المادي ... بل هي تشمل الوجود في مختلف نواحيه ، المنظورة وغير المنظورة ، المادية والروحية . ولعل سمو قصة دهاملت ، لشكسبير راجع إلى إحاطتها الكاملة بالحياة البشرية ، في غرائزها ومشاعرها وخيالاتها وأشباحها وتفكيرها ، فيما هو كائن على الأرض وما هو غير كائن إلا فيما بعد الموت ...

حياة الإنسان هي أعجب ما في الخليقة لأنها أوسع ما في الخليقة . والقصة القصيرة ، باعتبارها لونا من ألوان الفن ، يجب أن تتناول ذلك كله فيما تتناول من شؤون الإنسان في مجتمعه وحياته ... ومهمتها في ذلك عسيرة ... لأنها فن اقتضاب وتركيز ، شأنها في ذلك شأن المسرحية والقصيدة .

وهذا التركيز هو الذي قد يجعل منها فن المستقبل - في رأى بعض أهل الأدب العالمي اليوم - ذلك أن أدب المستقبل لن يحتمل الإسهاب ... وقارى اليوم والنمذ يكاد تكفيه اللمحة الخاطفة لإدراك الصورة الكاملة ،

وتكاد تغنيه الإشارة عن الإطناب في العبارة ...
فالقارىء الحديث الذى يعيش في عصر الطائرات النفاثات لن يطيق
طويلاً الإسترخاء في مطالعة مئات الصفحات ليحيط بصورة من الصور
أو شخصية من الشخصيات ... كما أن وجود الراديو والتلفزيون لن
يتيح وقتاً لقارىء ينفق في مطالعة كتاب طويل إلى جوار المدفأة ،
كما يقول الأوربيون ... فإن ركن المدفأة الذى ترعرعت في كنفه
القصص الطويلة لأمثال بلزاك ، وفلوبير ، ودستوفسكى ، وتولستوى ،
وسكوت ، وديكنز ، وغيرهم ، هذا الركن لم يعد يحتله الكتاب وحده
الآن كما كان في الماضى ... بل يشاركه فيه اليوم صناديق الفن الصوتى
والمرئى وبرامج مختلفة من مسموع ومنظور ...
أترى مجد القصة الطويلة قد انقضى بانقضاء القرن التاسع عشر
وأوائل القرن العشرين ؟ ...
مهما يكن من أمر ، فإن طابع المسرحية والقصة القصيرة بما فيه من
ضغط وتركيز وإيجاز وتليح هو الأدنى إلى طابع العصر الحديث
في مستقبله القريب ...
ومن يدرى ؟ ... فقد تدور الأيام دورتها وتصبح البلاغة في عرف
العالم القادم ، كما كانت في عرف الأدب العربى الغابر ، هى بلاغة الإيجاز ،
يفرضها على العالم اليوم عصر السرعة ... كما فرضها قديماً عند العرب
الرحل سرعة تنقلهم بين واحات الصحراء ...
السرعة في كل زمان ومكان تنمى في الإنسان سرعة الإدراك وسرعة
التلقى والاستيعاب ، فيستخذ الفن تبعاً لذلك من القوالب ما يتفق مع
روح العصر والحياة ...

ليلة الزفاف

انطلقت آخر « زغاريد » ذلك القران الميمون في الساعة الثانية بعد منتصف الليل ... وزف « العروسان » إلى حجرتهما بعد أن رشا بالملح من عيون الحساد ... وأغلق عليهما الباب وصارا وحدهما أخيراً ... وقد اجتازا الأعتاب نحو تلك اللحظة التي لم تخلق مثل كل اللحظات ... تلك اللحظة التي تشع كاللؤلؤة البهيجة في تاج الزمان ... زمان كل فرد على هذه الأرض ... من الملوك إلى الصعاليك ... تلك اللحظة التي بذل فيها ما يبذل ... ومن أجلها احتشد المعارف والأصدقاء ، واحتفل الأهل والأقرباء ، ونصبت الموائد ، وقرعت الكؤوس ، ولعب الفرح والأنس بالرؤوس ، وحمى الرقص وارتفع الغناء ، وسبح الحاضرون وعاموا في أويقات من الهناء ... جاءت تلك اللحظة ... قة السهرة ، وقبة الحفلة ، ومحراب الليلة ... لحظة الخلوة بين العروسين ... وبها من لحظة ... كل زوج ولا شك يذكر حيرته وهو يبحث في رأسه عن أول كلمة يخاطب بها عروسه وقد صاروا على انفراد ... أبدأ بكلمة جدية أم كلمة فكهة ... أم كلمة عاطفية ؟ ... وكل زوجة تذكر ولأريب إحساسها وهي تنتظر الكلمة الأولى من فم « عريسها » ...

أما عروس الليلة فلم يبد عليها أنها تنتظر شيئاً ... فما كاد باب
حجرة العرس يغلق ، حتى تركت « عريستها » واتجهت إلى منضدة
الزينة ، وجلست ووضعت رأسها الجميل في كفيها ... ورأى
« العريس » منها ذلك ، فأقبل عليها يقول :

— أمتعبة أنت يا عزيزتى ؟ ... صخب العرس أزعجك فيما
أرى ! ...

فلم تجب ... ولم ير العريس وجهها الذى تخفيه بيديها ، وانكبه
لم يلبث أن رأى قطرة دمع تفر من بين أصابعها ، وتسقط على
ثوب عرسها الأبيض ... فقال بصوت يهدج حناناً :

— أتبتكين ياسونه !؟ ...

فلم يسمع منها غير نشيج خافت ... فتألم لها ... انه يعلم
السبب ... إن سنية وحيدة أمها ... وقد فقدت أباهما منذ بضعة
أعوام ... فالافتراق عن هذه الأم العزيزة التى كانت لها كل شىء
ليس بالأمر اليسير ... ولعل هذه الفكرة هى التى كانت تخيم
عليها طول الحفلة ... لقد كانت مطرقة واجمة ذاهلة ، قليلة الكلام
نادرة الابتسام فحذب عليها ، وأصق خده برأسها ، وقال لها :

— لا تبكى يا عزيزتى سونه ... سأكون لك أما وأباً وزوجاً
وأخاً ... ولن أجعلك تشعرين أبداً أنك فقدت شيئاً أو

فأرقت أحداً ...

فأبعدت رأسها عن خده ، وأرادت أن تتكلم ، ولكن الدموع غلبتها ... فبادر هو يقول لها :

— لا تتكلمي ... إني أعرف ما تريدن أن تقولى ... اطلقى دموعك ولا تكتميهما ... هذا أمر طبيعى ... لست أخشى إلا على عينيك الجميلتين ... ولكن البكاء فى مثل هذه الحال يجلو النفس ، وعمّا قليل تشعرين بالراحة ، ويشرق وجهك ، كأنه شمس تسطع بعد مطر خفيف لطيف ...

فاهتزت كأن فى جوفاها معركة ... ثم تشجعت وقالت والدمع فى عينها :

— أريد أن أصارحك بشيء ... هل تسمح لى ؟ ...

— بالطبع يا سوتى ... بالطبع ... صارحيني بكل ما فى نفسك ... ألسنا الآن زوجين ؟ ... لا ينبغي أن يخفى أحداً عن شريكه شيئاً ...

— نعم ، من واجبي أن أقول لك ... وأرجو أن لا تتألم أو تفضب : إني أحب شخصاً آخر ...

لفظتها بسرعة وقوة ، ثم استخرطت فى البكاء ... ودوت هذه العبارة فى أذن العريس كأنها قذيفة ، وأذهلته المفاجأة ، فلم يحس

ألمأ ولا غضبا... بل لم يشعر بنفسه ولا بما حوله... ولا بالوقت
الذى مر قبل أن يتأسك ويشوب إلى رشده، ويعى مدلول ما سمع...
وينظر فيما يابى أن يصنع... وكان رجلا رزيناً عاقلاً في نحو
السادسة والثلاثين، علمته تبعات منصبه المحترم أن يزن الأمور...
فسرعان ما ضبط نفسه، وقال بهدوء ممزوج بالمرارة والعتب
المهذب:

— ألا ترين أن هذا التهرج جاء متأخر بعض الوقت؟ ...
هل كان لديك مانع من الافضاء به إلى في أيام الخطبة أو قبل
إبرام العقد على الأقل؟ ...

— كان يجب أن يتم هذا القران إرضاء لآمي المسكينة...
كنت أراها أتعس مخلوقات الأرض كلما حاولت إنشاعها بفسخ
خطبتنا... لقد كان أملها الوحيد، وحلمها الدائم أن ترائي زوجة
رجل مثلك!... ولقد خالفتني شجاعتى فلم أجرؤ على صدمها في
آمالها... وهى مسنة ضعيفة مريضة... إن الله يعلم كم جاهدت كي
تأكتم عاطفتى وأخفق حبي، وكم أردت آخر الأهر أن أفهم نفسى
أن الماضى قد انتهى بالزواج.. وقد خيل إلى أن قلبى قد استجاب
لنداء العقل، لكنى اللبيلة، وقد تم الأمر، وأمسى كل شىء
حقيقة... سمعت صرغرات قلبى تهزنى هزاً وتكاد تهدم كيانى،

أيقنت أنى أن أستطيع المضى فى خداع نفسى ... ولا يلىق بى
المضى فى خداعك ...

كانت تقول ذلك وهى تشفق بكائها وتنشج ... وأطرق
العريس وفكر فىما أفضت به مليا ... ثم قال :

- تصرف سليم ، ولا غبار عليه ... ثقى أنى من جانبي على أتم
استعداد لمعارنك فىما يتجه إليه عز مك ... الحق معك ... لا يجب
أن تخدعنى نفسك ... استمعى إلى صوت قلبك ... وما دام حبك
صادقا ... فليس لأحد عليك سبيل ... إنى أضع حرىتك بين
يدىك منذ الآن ، وأضع نفسى فى خدمتك ، فلنتدبر الأمر معاً ...
كيف نخرج من هذا الموقف أولاً ؟ ... هبى أنى طابقتك الليلة ،
ما الذى سيجصل ؟ ... ستكون فضيحة لن أرضاها لك ، ومصدراً
للأقاويل والإشاعات حولك لن يضب ... ثم هى صدمة قاسية
لو الدتلك ... وأنت التى أشفقت عليها من صدمة أخف وأهون ...
إذن ماذا نصنع ؟ ... ففكرى معى قليلاً ...

- أصبت ... إن طلاقى الليلة فضيحة ...

- فلا بحث عن حل غير هذا ... ابحنى جيداً ...

- ها أنذى أبحث ...

وجلس كل منهما يفكر ، وقد جعل رأسه فى كفيه ...

وأخيراً نهض العريس صائحاً :

وجدت حلاً ، ربما كان فيه الخير ، ولكنه يتطلب منك بعض
الصبر ، ومنى بعض القدرة على التثبيل ... ذلك أن أطلاقك بعد
شهر أو شهرين ، وفي خلال هذه الفترة أظاهر أمام الناس ، وعلى
الأخص أمام والدتك ، أني فظ الخلق شرس الطباع وإني أسوء
معاملتك ... بهذا نعدّها إعداداً رقيقاً لتحمل بين الطلاق ... بل
قد ينفذ صبرها هي فتحتك قبل انقضاء المدة على طلب الانفصال ،
فإذا تم ذلك رأيت بعدئذ حليها ومحط أملها في ذلك الذي اختاره
قلبك ... ما رأيك في هذا الحل ؟ ...

— مدهش ! ...

لفظتها وهي تريد أن تكفكف دمعها و « تنف » فلم تجد غير
طرف ثوبها ... فأسرع العريس قائلاً قبل أن تتمخط فيه :

— انتظري ... انتظري ... خذي منديلي ، ولا توشخي ثوب
عرسك ، حافظي عليه للقران الآخر ! ...

فتنازلت منديله وهي تقول :

— انك رجل نيسل ... إني آسفة ... ما ذنبك أنت حتى
أعكر عليك صفو هذه الليلة ؟ ... وماذا جنيت أنت حتى تفجع
هكذا في عروسك ؟ ... ولعلك علفت آمالاً كباراً على هذا الزواج ...

فأطرق لحظة ... ثم قال كالخطاب نفسه :
— لا تذكريني ... أفصد ... لا تعلق على هذا الأمر أهمية ...
— إني متألمة لك ...

— لا تتألمي لي ... إن بخير ... انك على كل حال است
مسئولة عما وقع لي ... حظي هكذا ... حقيقة لقد وضعت في هذا
الزواج أمل ، لأنني كنت دائماً رجلاً شحيحاً بعواطفه ضئيلاً
بفؤاده ... استغرقتني حياة العمل ، فلم أعرف من حياة اللهو
إلا القليل ، ولم أعط امرأة من نفسي شيئاً نفيساً ... ادخرت
كل ما في قلبي من حب للزوجة التي هي نصيبي ... كنت أنخيلها
في أوقات فراغي وهي إلى جانبي ، وأنخيل ما أناجيتها به من حذب
وعطف وحب وحنان ، كدسته كدناير البخيل على مر الأعوام
من أجلها ... لكن القدر أراد أن يصيبني فيما كنت كما يصيب
أحياناً البخلاء فيما يكتزون ... لأنه يحلو له السخرية ممن يركزون
همهم في هدف ... فيترصد بهم حتى يقتروا منه ، فيعذب به بطرف
أصبعه ، فإذا جهودهم هباء ...

— كل ذلك بسببي ... أنا مجرمة ...
— لا ... مطلقاً ... لا شأن لك بالأمر .. إن مثل مثل ذلك
الذي ظل يجمع المال ويدخره ليشترى به عيناً ، فلما تم له

ذلك واشترى العين وجدها محجوزاً عليها أو مرهونة لآخر
رهنًا عقارياً ممتازاً لافيك منه ... فما ذنب العين في هذه
الحال؟ ... الذنب ذنب الإدخار ... واليخيل ... وليتني جعلت
شعاري : « انفق ما في الجيب يأتك ما في الغيب » ...
إن كلامك يحز في نفسي كسكين ... لست أدري ماذا في
إمكاني أن أصنع لك ... من يدري؟ ... ربما عوضك القدر عني
خيراً ... وجاءك الغيب بزوجة أحلامك ... انى لم أكن بك
جديرة ...

— هذا لطف منك يا سو ... يا سنية ... سنية هانم ...
اعذريني .. لم أعد أدري كيف أناديك ...
— عجباً ... نادني كما كنت تناديني منذ لحظة ...
— أمام والدتك بالطبع ... أما ونحن وحدنا ... فلا حق لي ...
— لماذا؟ ...

— لم يعد لي حق تدليك .. أنت منذ الآن - كما قلت لك -
أجنبية عني ، ولا أدري ماذا نصنع الآن ، والدتك في البيت ،
ولا بد لنا من المسك في حجرة واحدة ... اسمعي : أنت لك
السرير ، وأنا لي الأرض .. ها هنا بجوار الباب في ذلك الركن
البعيد ... هيا انفضي إلى فراشك ... أنت في أشد الحاجة إلى

الراحة الليلية ، بعد كل هذه الأحداث المثيرة لأعصابك ...

- تنام على الأرض ١٤ ...

- لا يوجد وضع آخر ...

- هذا صحيح ، مع الأسف ، ولكن سامحني ... أرجوك ...

أهكذا أجعل ليلة عرسك على هذه الصورة غير البهيجة ! ...

- مالها ليلة عرسى ا...إني راض بها.. هل يتاح اكل عريس

مثلها؟ ... نثق أنه سيظل لها دائماً في نفسى ذكرى عزيزة ...

- إنك تريد أن تنفي عنى كل مسئولية.. على كل حال الوقت

الآن غير مناسب لمجادلتك ... فلأعد لك مكاناً مريحاً لمبيتك ...

فأنت الذى أنهكتك ولاشك هذه المفاجأة غير السارة ... أرى

فوق السرير « مرتبتين ، فلأفرش واحدة منهما على الأرض ...

وليسكن توزيع المسكانيين بيننا بالقرعة ... ما رأيك؟ ...

قال لها مبتسماً :

- موافق ... إني مطمئن إلى سوء حظى ...

ونهمضت من فورها... ونهض هو ... فتعارنا على نقل إحدى

حشيتى السرير إلى ركن من أركان الحجرة ... وأخذت هى فى

وضع الوسائد وتمهئة ذلك الفراش الأرضى ، حتى فرغت منه ،

فطلبت إليه عملة من ذات القرش ، واتفقا على أن الذى يخرج له

الوجه ذو الصورة يظفر بالسريـر ... ورمت بالقطعة النقدية في
الفضاء ، فإذا هي الظافرة ... فقال لها :

— ألم أقل لك إنى أعرف بختى ؟ ...

— إنى أخطأت الرمي ، فلنعد القرعة من جديد ...

— لا ... لا ... من فضلك ... حافظى على مبدئك : الصراحة

والصدق وعدم الخداع . لقد كسبت أنت ، وخسرت أنا ... فلا محل
للمراوغة ولا لزوم «للحمرأة» ...

فقبلت على مضض ... وخرج من الحجرة إلى أن خلعت ملابسها
واندست في سريرها ، فعاد وخلع ملابسه وأرى إلى فراشه ...
ومدت ذراعها البضة المرمرية إلى زر المصباح بقربها وهي تقول
مستأذنة :

— هل أطفىء النور ؟ ...

— إذا شئت ... وأتمنى لك نوماً عنيماً ... ومستقبلاً سعيداً

مع من اختاره قلبك ... وإنى واثق من أنك أحسنت الاختيار ...
ولو أنك لم تتحدثينى عنه ...

— إنه ضابط ... ملازم أول ...

— وشاب جميل بالطبع ، ويصغرنى بعشر سنوات على الأقل

فلا جدوى فى عتافسة ... ولا أمل فى مقاومة ...

ألفظها هامساً وهو يخاطب نفسه ، فسأله :

— ماذا تقول ؟ ...

— لا شيء ... أطفئ النور ... تصبحي على خير ...

* * *

مرت الأيام والزواج يمثل الدور المتفق عليه خير تمثيل ، ويشعر حمانه برفق أنه ليس الزوج المثالي الذي كانت تتمناه لوحيدهما ... غير أن المشكلة التي استعصت عليه هي مسألة الحجرة المشتركة .. إن هذه الحال بينه وبين زوجته ، المزبغة ، لا يمكن أن تدوم على هذا الوضع ... لأنه لا يستطيع النوم وهي معه في غرفة واحدة ، هكذا كأنهما غريبان ، وبينهما حيوان شهوان ، بالحرمان يزار ، وبالرغبة يجار ... إنه يحس كأن أنفاسها الحارة تلمح وجهه ... كل حركة منها تطرد النعاس من أعقابه ، إذا سعلت نهض يجرد نفسه من غطائه ليديرها به ... وإذا نفذ شعاع القمر من النافذة ، قام على أصابعه يتأمل وجوه البديع السابح في ضوءه ، ثم يسدل بعد ذلك الأستار ، حتى لا يزعجها النور ... وإذا تقلبت على أحد جنديها تقلب هو أيضاً ... وإذا نهضت بالليل لحاجة ، تصنع النوم العميق وكنتم أنفاسه المضطربة ، حتى لا تعلم أنه يقظان .. إنها هفتنة دائمة نائمة فوق سرير ... ولما كنا مستيقظة نائرة ساهرة في

جوفه ... كل شيء منها يقض مضجعه ... ويحطم أعصابه وإرادته
ويجعله يضطرب في فراشه كأنه ريشة : رائحة جسدها في أنفه ،
وتهدأتها اللطيفة في النوم ، وشخيرها الخفيف الهامس المتقطع ،
وطريقتها العجيبة في نومها ، وهي منبسطة على وجهها ، بشعرها
المتدلى ونحرها العارى ووسادنها التي تضغطها وتضممها في حضنها ...
إنه لعذاب لا يستطيع أن يتحملة رجل من لحم ودم ... إنه تحمل ذلك
ليلة وليلتين وثلاثاً وأربع ... وكاد ينقض الأسبوع ... ولكن
المضى في ذلك لفوق الطاقة والاحتمال ... كيف يصنع ؟ ...
والبيت ليس فيه للنوم غير المكتب أو البهو أو قاعة حجرتهما هذه
ثم حجرة أخرى تشغلها حباته ، أبيت في قاعة الطعام ؟ ...
وما عسى أن يقول الخدم والحماة في هذا التصرف من عريس ؟ ...
وحماة ان تفارقهما أبداً ... إذ ليس لها غير ابنتها ملاذاً ...
لم ير إلا أن يصبر صبراً جميلاً ... وأن يسرع في إنهاء مهمته ...
وجعل يشهد يوماً بعد يوم في إظهار غلظ طباعه . . . وحماة
تتغاضى حرصاً على هناء ابنتها ... وابنتها لم تكن متقنة لتسهيل
دورها ... فما كان يبدو عليها غضب من طباع زوجها «الموهومة» ...
ذلك أنها كانت تعلم أنه إذا خلا بها في الليل جعل يعتذر لها عن
إساءات النهار ... وانتهى بها الأمر أن صارت تسر لهذا اللون من

التشيل كأنها طفلة، وتكاد تضحك بدل أن تغضب . وهو يغمزها بعينه ، ويخثها على التظاهر بالتقطيب ... بل كانت تغلط أحياناً وتدافع عنه أمام أمها أو الزائرين إذا وجه إلى طبعه نقد... فتفلت من بين شفيتها كلمة « والله مظلوم ! ... »

إلى أن جاء يوم خطر فيه للزوج خاطر، وجد فيه العلاج لسهاد الليل .. ذلك أن يلجأ إلى منزل صديق قديم عزب ، يرتاح عنده وينام من العصر حتى المساء ... وأخبر حماته وزوجته أن أعمالاً طرأت ترغمه على هذه الغيبة ... وصار لا يعود إلا في العاشرة ... وأحياناً في منتصف الليل ... ولا ضير عليه في ذلك ، فهذا يمكن أن يدخل ضمن برنامج التشيل لدوره البغيض ...

وعاد ذات ليلة في الثانية صباحاً ... فقد دعى إلى عيد ميلاد صديق ، وكانت ليلة بريئة فيها طرب وغناء ومزاح ... فرأى الدهشة ، زوجته تستقبله في سريرها مستيقظة مقطبة ... لا تقطيب تمثيل ... بل تقطيب غضب حقيقى ... فلما أبدى لها العذر، وبين لها السبب ... سكتت غير مقتنعه ولا راضية ...

ومرت أسابيع ، فإذا هي تطلب إليه يوماً أن يذهب بها إلى السينما .. ورأى حماته تجهز الفسكرة قائلة :

— نعم ... اذهب يا ابني بعروسك وانزها معاً كما يفعل كل

« العرسان » ، ١ ...

- فرأى من واجبه أن يكون فظاً سيء الأدب ... فقال :
- ما كان ينقصني إلا هذا : أنا أخرج مع بنتك إلى السينما ؟! ..
- وما المانع ؟ ... أليست ظريفة جميلة ؟ ... إنها عروس
- تشرف أحسن عريس ! ...
- هذا رأيك أنت وحدك ...
- عيب يا ابني ...
- على كل حال ، ليس عندي وقت أضيعه في نزهة بنتك ...
- وهنا احمر وجه الزوجة غضباً ، وقالت :
- وعندك وقت تضيعه في السهر لما بعد منتصف الليل ؟! ...
- هذا شأني ...
- لن أخرج معك في حياتي ... أبداً ... أبداً ...
- وتركته وانصرفت مسرعة إلى حجرتها ... وأطرقت الحماة
- أسفاً وألماً ... أما هو فقد خرج إلى شأنه ، كما اعتاد أن يصنع في
- كل يوم ... ولم يعلق بنفسه شيئاً مما حدث ، كما لمثل بعد تركه
- خشبة المسرح ، وقد ضرب عليها وطعن وجرح ... وعاد في المساء
- فوجد زوجته في سريرها ، ووجهها في وسادتها وقد بللتها بدموعها ...
- ولم تتحرك لدخوله ... وحسبها هو نائمة ، لولا شهيق خافت ،

ونشيج غير مرتفع نبيه ... فذهب إليها يقول :

— مالك ؟ ... مالك ؟ ...

فرفعت رأسها من فوق الوسادة ، والتفتت إليه وخيوط

العبرات تلمح على خدها ... ولم تجب ... فقال لها بجهان :

— لم أرك تبسكين هكذا منذ زمن بعيد ... أهو أيضاً ؟ ...

— من هو ؟ ...

— الملازم ...

— أى ملازم ؟ ... آه ...

لفظتها مستدركة ، ثم قالت سريعاً بنبرة عتاب مرة :

— لا ... لا تحاول النهرب من إساءتك ... بل إساءاتك

المتكررة ... إني لا أستطيع أن أحتمل منك أكثر مما تحملت ...

هذا كثير على ... ما من امرأة تتحمل هذا من رجل ! ...

— ماذا فعلت يا ناس ؟ ...

— أتتذكر أنك آلمتني اليوم ؟ ...

— تمثيل طبعاً ...

— هذه حجة بالية ... إنك الآن صرت تجعل من هذا التمثيل

ستاراً تخفي وراءه كرهك لي ...

— سبحان الله ! ...

- إنك الآن أمسيت تتحاشى رؤيتى أطول وقت مستطاع
أتسکر ذلك ؟ ... إنك تنصرف مبكراً فى الصباح وأنا نائمة ،
ولا تعود إلا فى الغدءاء ... ثم تخرج فلا أراك إلا فى العاشرة أو
الحادية عشرة أو منتصف الليل ... إني أسألك وأسأل نفسى :
ماذا فى وجهى ينفرك ، أو فى شخصى يبعده ؟ ...
- أهذا معقول ؟ ...
- أتقسم أنك لا تنفر منى ؟ ...
- أقسم أن هذا لم يخطر لى على بال ...
- لقد كنت ظريفاً معى فى أول عهدنا ... شديد العطف
على ... كثير الحنان ...
- وأنا الآن كما كنت ... لم أتعير ...
- نعم ... أحياناً ونحن وحدنا فى هذه الحجرة تتلطف معى ،
ولكنك أمام الناس ...
- بالطبع ... أمام الناس يجب أن أكون غير لطيف ...
طبقاً للخطة ...
- أى خطة ؟ ... أتعرف أنها أمست لعبة سمجة ؟ ...
- ولكن ا ... هذا لا بد منه ...
- كان يسرنى تمثيك أول الأمر ... ولكنى الآن أراك

- جأداً فيه ، ويبدولى كأنه حقيقة ...
- كثرة الممارسة تعلم الإتيان ...
- كنت أفضل أن لا تتقن هذا الدور ... حتى لا يخالجنى شك ... كل كلمة منك الآن تطعننى حقيقة ، وتدمينى ... يجب أن تحذر قليلاً ... لم يعد الأمر فى نظرى تمثيلاً ... لقد اختلفت كل لفظة رقيقة . لماذا لا يمتد إتقان دورك أيضاً إلى مايسرنى ؟ ...
- كنت تقول لى أمام والدتى « يا سونة » وأحياناً ... « ياسوتى » .. ماذا حدث ؟ ... لماذا لا أسمع هذا النداء منك اليوم ؟ ...
- حصل تغيير فى الخطة .. نظراً لضيق الوقت ...
- ضيق الوقت ؟ ...
- ألا تعرفين ؟ ... نحن اليوم فى آخر أسبوعنا السابع ...
- ولم يبق أمامنا سوى بضعة أيام لنفترق ...
- بهذه السرعة ؟ ... أرائق أنك لم تخطئى ؟ ...
- اطمنئنى ا ... لنى لا أخطأ فى الحساب ... وكل يوم يمر أعده بكل دقة ...
- تعد الأيام لتتعتق رقبتك ا ...
- أنا ؟ ا ...
- لم يبق إذن سوى بضعة أيام لنفترق ا ... ما أشد سرورك ا ..

- حدثني ماذا ستفعل بعد ذلك اليوم؟ ... وأين ستسكن ؟ ...
- لا أدري ... لم أضع بعد برنامجاً لحياتي المستقبلية ...
- كم أتمنى أن تكون سعيداً في حياتك المستقبلية... ترى ترى هل ستذكر بالخير أو بالشر أيامي معك ؟ ...
- بالخير طبعاً ...
- وهل سيكون شخصي عزيزاً عليك ؟ ...
- دائماً ...
- أشكرك ...
- نامي الآن هادئة البال ... لقد تأخرت عن موعد نومك ...
- وجذب الأظحية ، وغطاها جيداً ، ومست كفه وجهها عفوياً ، فرغت خدها في يده ، كأنها قطة تتمسح في صاحبها وأحس دفء ذلك الخد الخملي الأسيل ، فسحب يده برفق ... وأطفأ النور في سكون ، وذهب إلى فراشه صامتاً ...

* * *

مرت الأيام الباقية مرأً سريعاً، في جو عجيب رهيب... فهي قليلة الكلام، نادرة الابتسام، بادية الكتابة... وكان على وجهها من الحزن المكتوم سخابة... تجيبه إذا تحدثت بنظرة فيها أشياء، يفهمها ويعلمها، ويهتز لها في أعماقه كأنها قصيدة بليغة... وقد شقت

عليه مهمته ، فجعل يتجاهل على نفسه ليستطيع أن يمعن في إساءته لها أمام والدتها ...

وتهيأت أخيراً الظروف التي يستطيع فيها إصدار ذلك القرار الحاسم ، دون أن تتأثر الأم كثيراً أو تخدش سمعة الزوجة ...
جاءت الليلة الأخيرة ... فتعمد الزوج أن يود في المزيج الأخير من الليل ، حتى يكون التعب قد أرغمها على النوم ، ولكنه وجدها ساهرة مستلقية على ظهرها فوق سريرها ، وضوء الصباح على وجهها الشاحب ، وكأنها أشخص ببصرها إلى السقف ...
فقال لها :

- عجباً ! ... ألم تنعسى بعد ؟!
- كنت أنتظر عودتك ...
- لو كنت أعلم ذلك لجئتك مبدراً ...
- إنك تعلم ذلك ...
- ما هذه اللهجة المكتئبة والوجه الحزين ؟!
- ليس هناك ما يدعوني إلى الفرح والاعتباط ...
- على النقيض ... كان يجب الليلة أن تكوني مسرورة
- مرحة ... غداً تكونين حرة ، وتستطيعين الزواج ممن تحبين ...
- إنك تعبر عن إحساسك أنت ...

— لا شأن لك يا حساسى من فضلك ، إني منذ خلوت بك
فى هذه الحجرة ، فى ليلتنا الأولى ، وأنا لا أهتم إلا بشعورك أنت
وحدك ، وموقفك ومشكلاتك ؛ وقد عاهدتك على ذلك ... وأظن
أنى قد بررت بالوعد ا ...

— نعم ... لقد كنت رجلاً شريفاً ...

— الحمد لله ...

ووقع بينهما صمت عميق .. واضطربت فى شفيتها كلمات ،
لم تجرؤ على إخراجها ... وأخيراً تشجعت وقالت :
— إذن أزيقت الساعة ...
— أعتقد ذلك ...

— هل ... هل تحب أن تعرف شعورى الآن ... أو ترى
من مصلحةك أن تتجاهله ؟ ... ثق أنه يشق على نفسى إخراجك ...
أظن من الخير لك أن أسحب كلامى ، ولا أسألك شيئاً ...
وليكن ما فى قلبى مكتوماً ، ولا يجب أن أطمع فى نبلك أكثر
من ذلك ...

— أفصحى وكونى صريحة دائماً ...

— إذا طلقتنى فإنى أموت ...

قالتها سريعاً ، وأخفت وجهها فى كفها ... ولم يكن فى صدقها

خلجة شك ... وكان صوتها صوت الصدق نفسه ، لو أنه أعطى.
لساناً ... تجلس زوجها على حافة سريرها ، وأمسك بيدها وقال :
— اسمعى يا .. سسنية ! ... من الصعب على أن أنسى أنك
أحببت شخصاً آخر ... ذلك الحب الذى رأيت بعيني آثاره فى
وجهك ليلة عرسى ! ...

— أعلم أنك لن تغفر لى ذلك ... وأحب أن تعاقبنى العقاب
الذى تراه ، ولسكنى أرجوك أن تصدقنى إذا قلت لك إن عواطفى نحو
ذلك الشخص كانت عواطف طفلة لم تعرف بعد ما هو الحب ! ...
— لى لا أكذبك مطلقاً ... غير أنى واثق أنك تقدرين.
موقفى ...

— نعم ... أفدر موقفك ... وأدرك ما يجول بخاطرك ...
وأعرف السؤال الذى يمنعك أدبك من أن تسألنى إياه ... ولكن
أقسم لك أنه لم تكن بينى وبين ذلك الشخص علاقة تجدل أو
صلة تشين ... كل ما فى الأمر أنه كان جارنا يوم كنا نقطن
فى حى « العباسية » وكنت ككل فتاة يهرها ذلك الزى العسكرى
والقوام الممشوق ، وكان يجيبنى وأحبيه كلما تقابلنا فى الطريق ،
وكان يخادثنى فى التليفون ... ولسكنى لم أخرج معه قط ... ولم
يجتمع على انفراد ... أوكد لك ذلك وأحلف بكل يمين، وسيأتى

الوقت الذى تتحقق فيه صدق قولى ...
— إنى أرى الصدق فى عينيك ... وهذا يكفينى ... ولكنى
أخاف من أمر آخر ... حقيقة شعورك نحوى ... هل أنت واثقه؟ ...
— كل النعمة ...
— كيف تقطين بذلك ؟ ...
— إنك ترتاب ، لأنك لا تعرف الحب ... ولكنى أخبرك
ما هو ... إنه ليس فى تلك البهرة العاجلة التى تخطف أبصارنا ،
ولا الهزة المفاجئة التى ترج قلوبنا ... ولكننى شىء يتكون على
مهل كالجنين ... أنه ينسج فتلة فتلة ، ويربط عقدة عقدة ، كمشغل
« التريكو » ... هكذا يتوثق الرباط بين قلوبين ... مهما تشك فى
قولى ... فإنى لن أستطيع التخلي أبداً عنك ... إنك ضرورى لى ...
بكل حسناك وسيناتك ... إنك لازم لى ، بمجرد وجودك فى هذه
الحجرة ... أسمع سعالك ، ويورقنى غيابك ... وتسرنى هودتك ،
ولو بعد منتصف الليل ، ويضحكنى بحثك فى الصباح عن جواربك
تحت السجاجيد ، وعن حذائك تحت الأمتعة ، ووجهك الملطخ
بالصابون وأنت تخلق ... وجرحك لوجهك بالموسى ، ونسيانك
منديك قبل خروجك ... واعتمادك على " لأذكرك بمحفظتك الملقاة
على منضدى . وابتسامةك الساذجة اللذيذة ، وأنا أنمطى فى الصباح

وأثناء ، وغضبك المفتعل وصياحك التمثيلي أمام والدتي ،
وكلامك لي عن عمك كما أني أفهم دقائقه ... ثم تذكر فجأة أني
لست حقيقة لك ، فتبدي معي التكلف .. ثم تنسى فتتيسر وتدلني
وتلاطفني ... وتطري ثوبي الجديد ، ثم عادتك في الطعام عرفتها
وتعلمتها ... فالخبز يجب أن يسخن ويحمر ، والأرز يؤكل مع
الخصر ... حتى نومك ... عرفت في أي ساعة من الليل تكون
على جنبك الأيسر ... كيف تريد أن أتخلى عن كل هذا ؟ ... تلك
تفاهات صغيرة ، ولكنها هي الحلقات الدقيقة الوثيقة في تريكو ،
الحب الزوجي ...

- « تريكو » ! ... ياله من تعبير ! ... لا تنسى الإبرة الطويلة
من فضلك ! ... إنها خطيرة ، وهي في يدك أنت ! ...
فضحكك ضحكة رقيقة ... ثم قالت بنبهة جد :
- لا تخش شيئاً مني أبداً ...
فأطرق مايا ... ثم رفع رأسه وقال :
- سونه ... دع لي وقتاً للتفكير ! ...
- لم أسمع منك لفظ « سونه » منذ دهور ! ... لم كل هذا
الخوف مني ؟ ...
- ليس منك ... ولكن على كمنوزي ... كمنوز البخيل التي

ادخرها في قلبه ... فأحى ياد سونه ، الآن ، وفي الصباح تفكر وقد
يأتي الفرج ...

وغطاها كما اعتاد أن يفعل ، وأطلقاً النور ، وذهب إلى فراشه
الأرضي في ركن الحجيرة ...

ولم يسكد يأوى إليه ، ويسحب غطاءه عليه ، حتى سمع صوت
« سونه ، تثب من سريرها ... وإذا هي قد دلفت إلى فراشه ،
واندست تحت الغطاء إلى جواره والتصقت به والتحمت بجسده
وهي تقول :

— أنت زوجي أمام الله والناس وقلبي ، ولن تغفلت من بين
ذراعي أبداً ...

وطوقته وضمته ... وإذا هو يجد نفسه في مكان الوسادة التي
اعتادت أن تحتضنها ليلاً ...

وكانت تلك هي ليلة عرسهما ، ولعلها أول مرة في تاريخ
الزواج ... يهجر فيها العروسان سرير الزفاف ، ليفترشا الأرض
متعانقين ...

طريد الفردوس

— سنذهب إلى الفردوس ...

— بعد عمر طويل ... إن شاء الله ! ...

— الآن ...

قالها صاحبي المرح ، وهو يدخل بي ذلك المساء حانة من حانات القاهرة ، كسب على بابها بلون أخضر « بار الفردوس » وأجلسني من الفور وجلس إلى مائدة ، يبدو أنها محجوزة له ، موقوفة عليه ... وأدار بصره في المكان وحيا بنظرة صاحب البار واحوانه ، وبابتسامة حور الخان ولدانه ... وصفق طالباً الشراب وهو يتلو :

— قال الله تعالى . وما الحياة الدنيا إلا متاع ...

— أكمل الآية من فضلك ...

— لم يتسع فؤادي لأكثر من هذه الجملة ...

وأقبل الساقى بالأقداح ، وأراد صاحبي أن يقدم إليّ فدحاً ،

فقلت له :

— ذنوبي قد فاضت بها كأسى فلا حاجة بي أن أزيد عليها

فدح خمر ... إذا أردت أن تكرهني فأطلب لي عشاء ! ...

فأذعن لرغبتى ... وطاب لى الطعام ، فطفقت ألتهم ، وجعل هو يرشف من كأسه ... ويقول :

— يعجبني أن يعرف الإنسان أن له ذنوباً ... إذا عرفنا ذنوبنا عرفنا حدودنا .. وإذا عرفنا حدودنا لزمناها وأبينا أن نتعديها ... وهأتذا قد رفضت أن تتعدى حدودك ا ... سأقص عليك قصة ثقى أنها ليست من وحى شرابى ، لقد وقعت بالفعل وفى هذا المكان بالذات ... وإذا لم تصدقنى فسل كل هؤلاء الحاضرين ... ولكنك تعرف أنى لم أكذب عليك يوماً ...

فلم يستطع فى المملوء بالطعام أن يجيب ... فاكتمت بهن رأسى علامة المصادقة ... فضى الصديق روى قصته :

— امنت أذكر هل سبق لى أن حدثتك عن ذلك الشيخ الصالح الذى يتبرك به أهل بلدنا فى الريف الشيخ عليش ... رجل ولد بعينين فى رأسه ، ولكننه لم ير بهما غير السماء ... ويبدو لنا أنه منذ نزل من بطن أمه ، وضعوه فى إناء من زجاج وختموا عليه ، حتى لا ينفذ إليه هواء البشر ، ولا تنسل إليه جرثومة من جراثيم الشر ... رجل لا يعرف ما هو الذنب ، ولا السيئة ولا الرلة ولا المعصية ... ما كنا نجره إلا ساجداً أو هاماً فى ملكوت الله ، لا يقطن الى نفسه ولا الى من حوله ... ولا يفرق بين الناس

والهوام ... لم يؤذ إنساناً ولا بعوضة ، ولا يملك من دنياه غير
مسبحة من حصي ، وغير موسى يخلق بها شعر رأسه ، وغير عمامة
العتيقة ، وأطواره المهمة ، ولحيته المرسله ... هكذا عاش ، يأكل
من عشب الأرض أحياناً كماه دابة ، ويقضم ما يلقى في حجره
أحياناً من كسرات المحسنين على غفلة منه أو سنوارة ، فهو لا يسأل
أحدأ شيئاً ... ولا يطلب إلى الدنيا متاعاً ... إلى أن مات الشيخ
ذات يوم ولم يبلغ الأربعين ... وكنت بالمصادفة في الريف ،
وأبصرته بعيني مع غيري من الناس ، وهو ملق في مكانه ، مسجى
على الغبراء ، وقد طرحت عنه عمامته فبدأ رأسه الخلق ، كالصخرة
اللامعة الملساء ، وسقطت إلى جانبه المسبحة ، وظهرت من
حزامه يد الميرسي ... وسكنت حركة لحيته التي ما كانت تهتز
إلا للذكر الله ... وهبطت على الناس رحمة به ، فأجمعوا على أن
يبنوا عليه ضريحاً ... وما تركت الريف حتى كان الضريح قائماً على
جثمان الشيخ عليلش ، وقد ساهمت بنصيب في إقامته ، وقلبي جياش
بالتأثر ، ونفسي فياضة بالخشوع ... وعدت إلى القاهرة ، وعاد
إلى ضعفي ، قاتله الله ... وجذبتهى قدمائى إلى مكاني المألوف من هذه
الخانة ... فما نحن إلا بشر ، لم يكتب لما السمو على أنفسنا غير
لحظات ... ومرت أيام ... وإذا بي أسمع جلبة من مكاني هذا ،

فاستدرت فأبهرت على هذه المائدة ، من خلق شيخاً رث الهيمة ،
قد أحاط به خدام المحل ، يحاررونه ويحرجونه ويفهمونه أن الموضوع
ليس موضعه ، وأن من الخبير له أن ينصرف بالحسنى ، فتبعت
المحاورة ، ثم سددت إلى الشيخ البصر ... ويا لهول ما رأيت ...
كلا ... إنه ليس الوهم ولا السكر ولا الجنون ... بل هو الشيخ
عليش بشخصه ولحمه ودمه وعمامة وأسماله ومسبحة وموساه ...
وفركت عيني وطلبت فنجائاً من قهوة ثقيلة أستعين بها على اليقظة ...
ثم سألت صاحب الحانة أن يتحن عقلي ... وطلبت إلى غانية من
حسان المكان أن تفحص صحوى ، فنظرا إلى بريبة أول الأمر ،
واسكنهما خضعا لإصرارى ، ولم أتركهما حتى أقرأوا وترفا إلى
نائب إلى رشدى ، مالك لصوابى ... فتقدمت إلى الشيخ ، ونحيبت
عنه الخدم ، وقلت له بصوت متهدج :

— ما اسمك أيها الشيخ ؟ ...

فأراعى لإفوله ، بجد وصراحة وثبات :

— عليش ا ...

وكان الصوت صوته ، والنبرة نبرته ، فدكدت أجن ، ومضيت

استفسر منه :

— الشيخ عليش من بلدة ...

فذكر لي اسم البلدة والقرية من ذلك الريف بما لم يدع في
نفسى ذرة من شك ...

— ساكن الضريح الذى ساهمت فى ...

— نعم ...

— وكيف تركت ضريحك وجئت ها هنا؟ ... لقد أبهرتك

بمعنى رأسى وأنت ميت ...

— نعم ... لقد مت حقاً ... وأردت أن أدخل الفردوس

واسكنهم طردونى ! ...

— الفردوس !؟ ... أيمكن أن يغلط الإنسان إلى هذا الحد؟ ...

ألا تستطيع أيها الشيخ الورع أن تفرق بين الفردوس الذى فى

السماء ، و « بار » الفردوس الذى فى شارع عماد الدين !؟ ...

— لا ... لم يحصل منى غلط ! ... لقد صعدت فعلاً إلى السماء ،

وطرقت باب الجنة ، فمعنى حارسها من الدخول ، وأعلن إلى أنى

لست من أهلها ، ونصح لى أن أطرق باب النار ، فصدعت بالامر

دهشاً حزيناً وطرقت باب النار ، فمعنى حارسها أيضاً من الدخول ،

وأعلن إلى لى لست كذلك من أهلها ... فخرت فى أمرى ،

وصححت شاكياً ... سائلاً الهداية ، طالباً البت فى مصيرى ، وأخيراً

قالوا لى : ليس فى السماء موضع أوضع فيه ... لأن الدنيا معركة

بين الخير والشر ، ومبارزة بين الفضيلة والرذيلة تقوم في نفس الإنسان ، فإذا انتصر الخير دخل الإنسان مملكة الخير وهي الفردوس ، وإذا انتصر الشر دخل مملكة الشر وهي الجحيم ... أما أنا فلم تقم في نفسى معركة ، ولم يحدث انتصار ، ولم أواجه الشر لأغلبه ... فأنا في نظرم كائفار من الميدان ، أو الهارب من الامتحان ، فكيف يجوز لم أن يثبوني أو يعاقبوني ، وأنا لم أعرض نفسى لأحداث الحياة ، حتى يظهر معدنها الخير من معدنها الشرير ؟ .. انى في نظرم غشاش مخادع ، لجأ إلى أيسر السبل اينال الجائزة دون أن يواجه الخطر ! ... وانتهى أمرهم إلى اعلان هذا القرار فى أمرى : وهو إلغاء حياتى الأولى واعتبارها كأن لم تكن ، وطردى من السماء ، لأعيش مرة أخرى على الأرض ، بنفس جسمى وروحى وكيانى الأول ، على أن أتقدم للإمتحان العسير وأواجه الشر وأنزل الرذيلة ليعرفوا بعد ذلك من أمرى ما ظهر وما استتر .. والقوا بى إلى الدنيا من جديد . بعين ثيابى وهيتى ، ف وقعت على القاهرة ، وأنا لم أزل فريسة حزنى وبأسى من ضياع جتى ، أردد كالمجنون عن غير وعى : «الفردوس .. الفردوس ...» فدفعنى أحد المساراة إلى هذا المكان قاتلا لى : «ها هو ذا الفردوس ...» فدخلت ، وإذا بى

أجد فيه أيضاً من يطردني منه ... حتى أنقذتني أنت أيها الرجل الطيب ...

عجبت لقصة الشيخ ، وأخذتني به شفقة ... وقلت له :
— لا عليك أيها الشيخ المبروك ... ما حدث لك لا يحدث لأى إنسان ... إنما هي كرامة من كرامات أولياء الله ... أن يسمح لبشر أن يعيش مرتين في هذه الدنيا ...
ثم أنهضته برزق وأجلسته باحترام إلى مائدتي ، وقلت له :
— والآن ، ماذا تنوى أن تصنع في حياتك الجديدة ؟ ...
— أواجه الشر ... إذا أردت أن تتخذهنى أيها الرجل الطيب فدانى أين أجد الشر ...
فضحك قليلا ، وقلت :

— هذا شيء بسيط ... وإن كنت شخصياً است بالدليل البارع في هذا السبيل ... ولكنى أستطيع على كل حال أن أعرفك بالشر في أهون مظاهره ...
وصفقت للساقى خضمر ... فقلت له :

— زجاجة شمبانيا لفضيلة الشيخ ا ...
خلمات «الجرسون» ، في وجهى ثم تبهه وأسرع يلبى الأمر ولم يابث أن عاد بالزجاجة غارقة في إناء الثلج ، وفض خانمها

الفضى ، فانطلقت السدادة كأنها مدفع ... نبه إلينا حسان
الحانة ... فصوبن إلينا نظرات دهشة مذهلة ، أتبعننا ببسمات ثم
ضحكات ... خافتة مكتومة لهذا المنظر الفريد فى الدهر ...
— فى صحتك ! ...

ورفعت كأسى وأشرت إليه أن يرفع كأسه ... فرفعها بيد
مر تجفة ورشف منها بجذر كأنما يرشف سما ... ولم يدر بخلدى
قط أنى جرعه حقاً سما سيسرى فى حياته الجديدة ، ويفعل بها
الأفاعيل ... ولم أفطن للأمر إلا بعد أن جرع الشيخ كأسه
الثالثة ... وثمل وانقلب يغنى بالواشيخ الدينية والمدائح النبوية ،
ثم يسبح بأسماء الله على مسبحته بصوت السكارى ... وهذا كل
ما يعرف طبعاً من غناء دفعته إليه النشوة ... فبذلت جهداً فى
اسكاته ، خشية الفضيحة ... وصيانة لمقام الدين ونحو فى هذا
المجال ... فاقنع الشيخ ، وترك الغناء بهذه الأشياء المقدسة ...
وتلفت ذات اليمين وذات اليسار فليح غانية ظريفة فتمنح وقال :
— أعطنى هذه الحورية ! ...

فالومات إليها ، فأقبلت وجلست وأوصيتها بمدحبة الشيخ ،
فداعبته ولاعبته حتى ذهبت بديقة ليه ... وخطر له وهو فى أوج
انشراحه وترنحه أن يسألنى عن اسمى ، فراوغته ، فقال :

— ولماذا أسألك؟ ... أو تظنني أجهلك؟ ...

— أتعرفني؟

طبعاً ... أنت رضوان ... الذى أدخلنى هذا الفردوس

بحوره العين ...!

وقهقه ضاحكاً ، ومال على الغائبة يضمها ... واتصف الليل
ثم دقت الساعة الواحدة ، وأقفرت الخانة ، وأراد صاحبها أن
يغلقها ... وهنا راحت السكره وجاءت الفكرة ... ماذا أنا صانع
بهذا الشيخ صاحب السكرامات؟ ... وأين يكون مقره ومقامه؟ ...
ليس من المعقول أن أسجبه معى أو أذهب به إلى منزلى .. وليس
من المعقول أيضاً أن أردّه إلى ربه وأعيده إلى ضريحه ...
ما الحل؟ ... أين بيت ليله؟ ...

وتأملت الأمر ملياً ... ثم قلت فى نفسى : ولماذا أتعب نفسى
به؟ . ماشأنى بهذا الشيخ ولى الله؟ .. هل عينى أحد ولى أمره؟ ...
وهل قذفوا به من السماء لأحمله أما على ظهري؟ . ،

وهدانى الله إلى وسيلة ... أن أنقد الغائبة مبالغاً لتخرجنى من
المأزق ، وتبقبه معها ريثما أنصرف بسلام .. ولها بعد ذلك أن
تؤويه أو تلقيه ...

وتم لى ما دبرت ، وأنقذتنى الغائبة السكريمة ، وانصرفت إلى

بتي ، وانقطعت عن هذه الحانة أسبوعا ، خشية أن أصادف
الشيخ ، فيتعلق بي ويرغمني على مصاحبته وسامرته وتحمل تبعته
وشأنه وهمه ومستقبله ...

وهضى الأسبوع فلم أجازف بالذهاب .. وآثرت الاتصال بصاحب
الحانة بالتليفون ... فما كاد يسمع صوتي حتى صاح بي قائلا :
- ما هذه المصيبة التي نزلت علينا ؟ ...

- أى مصيبة ؟ ...

- صاحبك الشيخ ... إنه لا يريد أن يترك المحل لا ليلا
ولا نهارا ... وكلنا نأفئناها صاح فينا : لى أذهب أبدا .. المؤمن
لا يطرد من الفردوس مرتين ! ...
- وماذا صنعتم به ؟ ...

- لا شيء ... صنعنا له صندوقا لمسح الأحذية ، وحلقنا له
ذقنه ، وألبسناه جلبابا ... وألحقناه بخدمة المحل ، ينظفه بالنهار ،
ويابع أحذية الزبائن بالليل ! ...
- فكرة نيرة جداً ...

قلتها بكل إخلاص ، وكل إعجاب ... ولكن هذا لم يمنعني من
تعهد الانقطاع عن الحانة زماً آخر ، حتى يلتصق الشيخ عيش
بصفته الجديدة تمام الالتصاق ، وينسى الليلة المحمودة تمام النسيان ،

فلا بلحقتني من انقياء متاعب ...

* * *

ومرت أعوام ثلاثة ... دون أن أضع قدمي في تلك الحانة...
لا تعهداً ، بل طاعة لأمر القدر ... أو قل أمر الحكومة ، فقد
دس لي الحاسدون النمامون لدى رئيسي الجديد « الغشيم ، اللثيم »
وانهموني ظلماً بأني قليل العمل ، كثير الكسل ، مدمن على السكر
والعربة وارتياح الحانات ... فما راعني ذات صباح إلا أمر من
الوزارة بنقل إلى أقاصي الصعيد ... فمكثت هناك إلى أن أذن
الله والمساهي المثمرة بعودتي ...

فما أن استقرت في الحال في عملي الجديد بالمصلحة ، حتى شعرت
بالحنين إلى حياتي الماضية... ونشطت ذات مساء أقصد هذه الحانة ،
وكنت قد نسيت الشيخ عفايش وما جرى له بالتمام ... فدخلت
وأجلت النظر في المسكان ، فلم أجد شيئاً على حاله القديم ... كل
شيء قد تغير : مائدتي المختارة ، والغنايات والساقون والبارمان ،
وحق مدير المحل ... لم يبق شيء كما كان سوى اسم الحانة ، فهو
هو دائماً لم يتغير : « بار الفردوس » ا ...

وقفت لحظة حائرة لا أدري أين أجلس ... حتى لمحت غانية
من بنات الهوى ، قد اعتلت البار... وهي بمفردها تدخن ، والدخان

مغميم حول وجوها الأبيض المستدير كأنه السحاب حول قمر ...
فاتجهت إليها ، ووافقت بجوارها وطلبت لها كأس ولى أخرى ،
وأخذت آغازها بكلمات محفوفة بما يناسب المقام ... إلى أن قطع
الحديث ماسح أحدىة ، يهمس قربي : «تمسح يابك» ... فارتجفت
ونظرت إليه ، وتذكرت جفاة الشيخ عليش ... وقلت فى نفسى : ماذا
أنا فاعل لو ظهر الشيخ بصندوقه ، وماذا أنا فائل لو جذب حذائى
ليمسحه ؟ .. أأدفعه إليه ، أم آباء عليه ... ترفقاً به واختراماً له ؟ ...
ورفعت الغائبة قدحها إلى شفيتها ، وهى تنظر إلى باب الحاة
قائلة لى بقلق :

— لن أوقف طويلاً معك ... إنى أخاف أن يحضر فيرانى ...
إنه شديد الغيرة ! ...

— عمرن تتكلمين ؟ ...

— علوى ... علوى بك ! ...

— علوى بك ! ... من هذا ؟ ...

فظهر على وجهها الاستغراب ، والتفتت تحديق فى وجهى
وهى تقول :

— عجبا ! ... ألم تسمع بهذا الإسم ؟ ... كل شارع عماد الدين
يعرف من هو علوى ! ... يظهر انها أول مرة تدخل فيها البارات

والكباريات ...

— حقاً ... منذ أكثر من ثلاثة أعوام ا ...

— لقد اقترب موعد مجيئه ... أنصحك أن تبعد عني بمجرد
إشارتي لك بالابتعاد .. وإلا فأنا لست مسئولة عن منخارك أر
أذنيك إذا أطاح بها حد الموسيقى ا ...

— يا مغيث ا ...

فلتها هامساً مرتعداً ... وأنا أنظر إلى الباب ... ثم خطر لي
أن أنتعد بكأسي عن المرأة منذ الساعة ، دون انتظار للمقدر والله
يغنيننا عن قربها المحفوف بالخاطر ... ولكني خشيت أن أبدو
على هذا الجبن أمام امرأة ، لعلها ما قصدت إلا العبث بي والمزاح
معى ... وتجلدت قليلا ، واستأنفت الحديث والمغازلة ... وإذا
هى فجأة تلتفت إلى الباب ، كالقطة الى أحسست بغريزتها حركة ...
ثم أدارت لى ظهرها ، ونأت عني بقدها ... نادرت أن صاحبها
قد حضر ... ولقد شعرت بالفعل كأن الحانة كلها تدمستها شرارة
كهرباء ... فقد ساد بئمة صمت لدخول ذلك الرجل ، شمل الحاضرين
من زبائن وسائين إلى مدير المحل الجالس فوق المنصة .. فرفعت
عيني بحذر وادب أخص ذلك الذى يسمنه « علوى ، ... فرأيت
رجلا أنيق الملابس ، خفيف اشارب ، لامع الشعر ، يتضوع منه

عطر السكاونيا الثمين ... وخطب الرجل بلهجة الأمر « البارمان ،
تخيل إلىّ أنى أعرف هذا الصرت ، واحتلت لأنظر إلى وجهه
ملياً ... فإذا الدهش بعقد لساني : لم يكن علوى بك هذا غير
الشيخ عليش فى قالب جديد ا ...

ولم أدر ماذا أصنع عندئذ ... هل أحادثه ؟ ... هل أنسحب
من المكان دون أن أشعره بوجودى ؟ ... وتساءلت : أترضيه
مقابلتى اليوم أم تزججه ؟ ... ليس لى أن أبدأ على أى حال بشىء ...
واسكن الظروف سرعان ما تدخلت ... فقد أراد هو أن يخرج
من جيبه الخلفى علبة السجائر ... فصدمتنى بده على غير انتباه
منه ... فالتفت نحوى ... وتقابلت عينانا فخلقت فى وجهى لحظة ،
كمن يراجع ذاكرته ... ثم ما لبث أن انفرجت شفتاه عن صيحة
أذهلت الحاضرين :

— رضوان ا ...

ثم فتح ذراعيه ، وعانقنى عناقاً طويلاً ... فرحاً كالطفل ،
مبتهجاً كمن لقي لقيته ... وهو يردد : « رضوان . . . صديقى
رضوان ا ... ، ... وقبل أن أفتح فى بحرف ، جذبنى من يدى
وقادنى إلى مائدة فى طرف الحانة كأنما يريد أن ينفرّد ويستأثر
بفرحة العثور علىّ ... وصفق ينادى « الجرسون ، :

— زجاجة شبنانيا ...

— هكذا سرها ١٩ ...

— دعني أرد إليك بعض دينك ! ... أين كنت طول هذا الزمن ؟ .. لقد بحثت عنك في كل مكان ... ولكنك اختفيت فجأة ... ها إذا أعثر عليك الآن فانركني أرد إليك الحسنة بعشرة أمثالها ! ...

— انت أدري هل تعتبر فعلتي حسنة ١٩ ...

قلتها كالمخاطب لنفسي ، وأنا أجيل بهمري المشدرة في كل جزء من أجزاء هذا الكائن الذي كان يسمى فيما مضى الشيخ هليش ... كلا ، إن التغير الذي طرأ عليه لا يمكن أن يسمى تغيرا ولا تطورا ولا انقلاباً .. إنه شيء لم وجد له بعد اسم .. الوجه ووجهه والصوت صوته ، ولكن اللمجة التي بها يتحدث ، والطريقة التي بها يشرب ، والأسلوب الذي به يسمر ، والعقل الذي به يفكر ، والنفس التي بها يشعر .. كل هذه أشياء أراها لأول مرة ... على أن عيني الفاحصة دلتنى على شيء عنده سبق أن رأيته ... طرف الموسيقى البارز هذه المرة من جيب الصدر ، خلف منديله الحريري المتهدل ... ولم يدعني أستغرق في دهشتي وتأملي ... فقد رفع كأسه قائلاً :

— في صحة رضوان ا... —

فرفعت قدحى ا...

— في صحة علوى ا... —

وشرب كأسه كلما في جرعة واحدة .. ثم التفتت إلى قائلاً :

— أرى أن عطاشك الحقيقي هو إلى معرفة شيء عن صديقك

الجديد « علوى » ا... —

— طبعاً ا... —

فأشار إلى ماسح الأحذية الذي يجوس بصندوقه خلال

المكان وقال :

— لقد بدأ هكذا ...

ثم أخذ صوته يخفت كلما أوغل في الحديث ، كأنما يدلى

باعتراف أو يسعى إلى مخاطبة النفس ... ثلاثة أشهر أو أربعة

حمل فيها صندوق الأحذية وتعلم خلالها النشل والمقامرة والمغامرة

وخدمة الغواني ... إلى أن تجمع في يده مبلغ من المال ... فطرح

صندوقه وجلبابه ، واشترى بذلة نظيفة وصار أفنديا ... ولكن

صلته بالغانيات وحاجتهن إلى الحماية جعلتا منه في نظرهن رجلاً

لا غنى لمن عمه ... ولقد تبين له بعد قليل أن هذا عمل مريح ...

فقد كثرة عدد المحتاجات إلى يده وحمايته ... وشاع عنه ذلك في

هذه البيئات ، وشاهد الناس من خوارق براعته في استخدام
الموسى ما جعلهم يحسبون لغضبه حساباً ... وامتد نفوذه إلى
أكثر البارات والحانات ، بمن فيها من نساء وزبائن وساقين ...
فهو الآن يرتاد أغلب أماكن اللهو ، ويطلب ما يريد ، دون أن
يجرؤ أحد على الاعتراض أو المطالبة ... بل هو الذى يتقاضى
من أصحابها الأتاوات والمرتبات لضمان الهدوء فى هذه المحال ...
وهو أحياناً يشتط فى الطلب ، ويركب إلى التهديد وإحداث
الشغب فيذعن من يذعن ، ويلجأ البعض إلى بيع حاناتهم هرباً منه
وضيقاً ... كما حدث للمالك السابق لبار « الفردوس » ... هذا
هو علوى ... وهذه حياته ... رواها بلهجة سريعة مقتضبة ...

ثم التفت إلى قائلاً :

— والآن ما رأيك ؟ ...

فألجنتى الحيرة ماذا أقول ؟ ... وكيف أمسه بنقد وهو شارب ،

والموسى فى جيبيه .. ولكنى أجبتة برفق :

— لقد كنت هبطت الأرض لتواجه الشر فيما أذكر وتنازل

الرييلة ...

— ماذا تقول ؟ ...

— ألا تذكر أنهم أنزلوك إلى الأرض من جديد لتنازل الشر ؟ ...

— من الغريب اني نسيت ذلك . . . لقد استغرقتني حياتي
وجرفتنى ، فلم أفطن إلى ما حدث . له .
ألم صادف الشر؟ . ألم تر الرذلة؟ ...
— أين؟ . . .

قالها كالتائه أو المحقد في الظلام . فألقيت نظرة إلى
الزجاجات الثلاث التي أفرغها في حوفه ، منذ جلوسنا . ثم ألمت
حاله ، فلم أجد للشراب أثراً في صوابه . هو ذن صادق في
إحساسه . لقد حرفه التيار إلى ... الهاء حتى عن سؤال نفسه
« في أي طريق يسير ،؟ ... نالها من حزيمة ... إنه لم يثبت
للنزال ، لقد تلاشى الشيخ غلش ، وتلاشت عمائته ومسبحته
بلهسة خفيفة من ظل الرذلة ... لقد تبع في الميدان الراية البيضاء
دون وعى منه ، قبل أن يفطن حتى إلى رحود عدو ومركة ...
وأطرق الرجل طويلاً ثم قال بذلك الصوت الخافت صاعداً
من أعمدق نفسه :

— في يدي المال والسطوة المتعة وليكن مخلوق شقوا
— أبدأ ضميرك بعدك ؟
— ضميري ١٤ أعمره الآن ، هو . أتستطيع أن تحدد
الإصغاء إلى ... لأحرك ...

— نعم ... أخبرني بكل شيء ... إني أحس كأنى مسئول ...

فقاطعنى بتصفيقة قوية ينادى بها الساقى وهو يصبح :

— زجاجة أخرى ...!

ولكن مدير المحل أو ما إلى «الجرسون» أن يتغاضى ويتصامم،
وصفق علوى مرة ثانية وثالثة ... فلم يجد ملبياً لندائه ، فأطلق صيحة

مدوية ضج بها المكان ، فحضر إليه مدير المحل يقول :

— علوى بك ! ... ألا تكفى ثلاث زجاجات من الشمبانيا

للفاخرة ؟ ... هذا كثير ! ...

— الكثير أذناك اللسان لا تسمعان طلبي ... سأريك أن

واحدة منهما تنكصك لسماى ...!

وفى مثل لمح البصر ، استل موساه من جيب صدره ... وقذف

مدير المحل ... وكنت لحسن الطالع قد فطنت لقصد صاحبي ،

فدفعت بكل قواى مدير المحل بعيداً عن مرمى النصل ، فنجنا

واستقرت الموسيقى فى خشبة المنصة ... وهاجت الحانة وماجت

ولكن ما من أحد تحرك من مكانه ، فقد كانت لعلوى هيبة ...

فتسمر الحاضرون فى مكانهم رهبة أو وهما .. وقام هو يمشى على

مهمل بجلال إلى المنصة ، فنزع عنها نصلة البراق وطواه ودسه خلف

منديله ، وأراد أن يعود إلى مجلسه من الخوان ، ولكنى أمسكت

بذراعه وسألته باحلف أن يخرج معي من الحانة ، المستأنف حديثاً
في هواء الطريق الطاب ... فأذعن مرغماً لرجائي وخرج معي ...
وهو يهمس بغضب مكثوم :

— لا يستطيع أحد أن يخرجني قهراً من هذا «الفردوس»! ...
— قهراً لا ... لقد خرجت بإرادتك! ...

قلتها له بلمحة التراف والمدارة خشية من بواده ، وتهديته
لثأمره ، ثم سألته ونحن في الشارع سائران أن يرضى في حديثه ،
وأن يخبرني بما كان يزعم إخباري به ... فظفر في ساعة ذميمة
بمعصمه وقال :

— لا أستطيع الآن ... غداً إذا شئت ... وموعداً في عين.
هذا الممكن ...

— حين هذا البار ١٤ ... أو هذا يمكن بعد الذي - صل ؟ ...
— ماذا ؟ ... هذا يحصل كل يوم ! ...

* * *

لم أتمكن من مقابلته في الموعد المحدد.. فقد دعيت إلى عرس
أحد أقربائي في الريف ... فسافرت ولبثت هناك بضعة أيام ،
رأيت فيها الدجج : ضريح الشيخ عليش أصبح كعجة يبيع إليها مئات
الناس من القرى المجاورة ، يحملون إليه الشموع أيام الأسواق

ويوفون بالذور... وينوهون بكراماته العديدة في إراء الأمراض
وقضاء الحاجات ...

ولقد أبصرت امرأة ترفع طفلها العليل بيديها ليلبس شبك
الضريح ، ويتلقى من مس حديده البركة ، وهي تصيح من أعماق
قلبها :

— يا شيخ عليش !... يا ولي الله يا ساكن الفردوس ! ...

نظرة ... مدد ... نظرة ... مدد ! ...

ولقد سمعت رجلا يهز باب الضريح صائحاً :

— يا شيخ عليش !... يا حليق الرأس... خذ يدي ، واشف

بوجع رأسي ! ...

أبصرت ذلك وسمعته كثيراً من أفواه كثيرة ... وقلت في
نفسي : منذا يستطيع أن يقول في هذه الجموع المؤمنة الآملة أن
الشيخ عليش لا يوجد إلا في بار «الفردوس» بشارع عماد الدين ،
وأن من يدعو له ولي الله حليق الرأس ليس سوى «باطلي» ، يحلق
الآن الأنوف والآذان بموساه من رؤوس الناس !! ...

لوقلت لهم هذا القول لرجهوني بالحجارة ، وصاحوا بي : اقتلوا
الكافر !... اهلكوا الكافر ! ...

على أن العجيب في الأمر أن كثيراً من هؤلاء المرضى الذين

يزودون الضريح يشفون حقاً ... ولقد أكد لي ذلك بعض من
يوثق بقولهم من جملة أقربائي في الريف ...
ولقد فكرت في ذلك قليلاً ، فزال عني العجب : يالهؤلاء
الناس ! ... انهم هم الذين يشفون أنفسهم بأنفسهم وهم لا يعلمون ...
إن الناس لا تريد أبداً أن تصدق القوة الخفية الكامنة في أعماقهم ...
ولا بد أن يختزع لهم وهمهم قوة خارجية ينسبون إليها ما يابون
هم من معجزات ! ...

وتخيات حال الشيخ عليش - أو علوى بك - لو أخبرته بأمر
هذا الكرامات التي تفيض على الجوع من نوافذ ضريحه ... بينما
هو غارق في خمور البارات والحانات ... ولما كنت رأيت أن أمسك
عن اخباره وأن ألزم الصمت المطبق ، رحمة بجيوب العباد . . .
فإنه لو علم ، لحضر إلى الريف واستغل هذا المنجم الذي لا ينضب ...
وحسبي ما انترفته من اثم ما زال يوقر ضميري ، إذ دفعته إلى
طريق الموبقة أول ليلة ... فلا ينبغي أن أدفعه إلى طريق اثم
جديد ... فليبق اسمه منبع رحمة للناس وليذهب جسمه إلى الجحيم ...
عدت إلى القاهرة ... وذهبت في المساء إلى حانة الفردوس ،
فتلقاني مدير المحل بالترحيب ، وشكر لي موقفي وتدخلي في تلك
الليلة التي هاج فيها علوى وقذفه بالموسى ... وقال لي أنه كان ينوي

أن يخبر ابوليس ، وأن يجازف ويتعرض لانتقام علوى ... فهو يعلم أنه لن يتركه في هدوء إذا هو بلغ عنه ... فهو له أعوان . . . وأنه سيتعقبه بالويل ولو بعد أعوام من سجنه . . . لو سجن . . . ولكنه أثر ضبط النفس ، والتغاضى عن الحادث ... لأنه يعرف علوى منذ زمن ، ويعلم أنه سريع الغضب سريع الصفاء . . . والخير في استئناف الصلات الودية مع مثله ... غير أنه يلاحظ عليه في الأسابيع الأخيرة تغيراً غريباً . وليس هو وحده الذى رأى ذلك منه .. غايات الحانة على الخصوص وهن أدق احساساً بما يشغل نفسه في هذه الأيام ... ولقد سألته : أحداث علوى بعد تلك الليلة ؟ ... فأخبرنى وهو دهش أن علوى لم يحضر إلى الحانة منذ خروجه معى تلك الليلة ! . . .

وعبثاً حاولت بعد ذلك العثور على علوى . . . بحثت عنه فى جميع البارات والسكاريهات ...

وأخيراً قال لى أحد خدام « البار » أنه لمح ذات مرة شخصاً يشبهه جالساً أمام مقهى وصفه لى فى حى السيدة زينب ... فذهبت إلى ذلك المقهى ... فإذا بى أجد علوى قاعداً بمفرده ، يتأمل شيئاً لا أتبينه فدوت منه ، ولكنه لم يفتن إلى حتى وضعت يدى على كتفه ... فأفاق فى شبه رعدة ونظر إلى وقال :

— أنت ؟ ... ماذا أتى بك إلى هنا ؟ ...

— وأنت ... ما الذى أتى بك إلى هنا ؟ ...

— اجلس ...

قالها وهو يهيم لي كرسيًا بجواره ، ونادى « الجرسون » ،
وطلب لي فنجانًا من القهوة ... وأطرق طويلًا ، ثم رفع رأسه
وقال بصوت كالمس :

— يجب أن أخبرك ...

— نكل ما يقوم في نفسك ! ...

— نعم ... لن أخفي عنك شيئاً مما فى نفسى ... لأنى أحب ...
وعندما ألفظ أنا هذه الكلمة ، فأعلم أن أمراً عظيماً قد وقع ...
فأنا من أكثر الناس صلة ومعرفة بالنساء ، ومن أكثر الرجال
متعة وامتلاكاً للحسان والغايات والجميلات ... والسكن الذى
حدث لي قلب كيانى وأثبت في قلبى هـشاعر أحسها لأول مرة ...
هى فتاة لو رأيته لعجبت كيف أن مثلها يمكن أن يوحى بالحب ...
على الأخص إلى رجل مثلى ... نحيلة ضئيلة يضرب لونها إلى
الصفرة ، لا تضع الطلاء ، ولا تعرف الإغراء ولا تلبس غير
البسيط الضرورى من الثياب ... هى معلمة فى مدرسة ابتدائية
للبنات فى هذا الحى ... تسألنى : كيف عرفتها ؟ ... أقول لك :

المصادفة . . . كانت في دار من دور السينما مع بعض تلميذاتها
يشاهدن رواية ملونة بالرسوم المتحركة . . . فلما انتهت الحلقة
وخرجت بأطفالها تعرّضَ لها شاب ثقيل بمغازلة سمجة ، فلم
تعرف كيف تحمي نفسها منه ، فدخلت وألقذتها ، وأوصلنها
إلى مدرستها مصونة موقرة مع تلميذاتها . . . فشكرت لى ذلك
بصوت لن أنساء . . . صوت أُنثَرَّ في نفسى كما تؤثر أحياناً
قطرات الندى في قطعة الصخر ... صوت لم أسمع من قبل نبرة
حنانه ورقته ووداعته حتى ولا بين ملائكة السماء ! ... منذ تلك
اللحظة شعرت أنى محتاج إلى هذا الصوت ، كما تحتاج الصحراء إلى
ماء المطر . . . فكنت أجيء في كل يوم أقرب موعد خرووجها
ودخولها المدرسة . . . لأقابلها وأقرئها السلام ، زاعما لها أنى
من سكان الحى ، وأنصرف عنها وقد ملأ صوتها قلبى ... فأعيش
على هذا الغذاء ساعات حتى أحس الحاجة إلى صوتها من جديد ...
هذا كل عملى الآن ... انها كل شغلى الشاغل ... بل هى النور
الذى أضاء جوانب نفسى وجعلنى أتحمس دهايلزها المعتمدة
وأعرف ما فيها من خير وشر ، وفضيلة وريذلة ، وكنوز وثعابين ،
آه . . . ليس الفردوس هناك فى السماء ... وليس هنا فى شارع
عماد الدين . . . انه هنا فى القلب ! .. وربما كان فيه الجحيم

أيضاً ... لقد عشت أياماً على أمل الزواج منها ... لأنى بغير هذا المصباح لا أرى شيئاً ، ولا أميز شيئاً ... ولا أفرق حتى بين الحسنة والسيئة ، ولكن دون هذا الأمل هوة أوسع من فوهة جهنم ! ... لقد تمكنت من إطالة حديثي معها ... فعلت أنها مخطوبة لابن عم لها مدرس هو الآخر فى مدرسة ثانوية ... ولقد تبينت من حديثها وتفكيرها أضواء من الحياة النظيفة والعواطف النبيلة والأهداف السامية ... كل همها فى الدنيا إخراج نماذج من البشرية الراقية ... وهى تتحدث عن خطيبتها كعاون لها فى مهمتها الإنسانية لقد كنت أحس الضالة والحقارة وأنا بجوارها أستمع إليها ، كأنى ذبابة قدرة دائية من شراب مطهر أو دمة مقدس ... ماذا ينبغى أن أفعل بعد ذلك ؟ ... أماعى طريقان ... إما الهجوم والعمل على الظفر بها بأى ثمن ، وقد أنجح ... فهى لا ترتاب فى أمرى ، وتجهل كل شىء عنى ، وقد لمحت من حديثها بعض الاطمئنان إلى والثقة بى ، وليس من العسير أن أنمى ذلك فيها إلى حصد العطف والميل وربما ... الحب .. وإما أن أنقذها منى ، وأتركها لطريقها المستقيم ، وخطيبتها المهنذب ، وحياتها النظيفة وهدفها السليم ... إذا دخلت حياتها فقد حطمتها وهدمتها .. فما أنا لها إلا نقمة ا ... وما ذنب هذه الطاهرة

الماضي الباسمة المستقبل ، أن تكتشف ذات صباح وهى بين أترابها
وزميلاتها وتلميذاتها ورئيساتها أنها ماتت ورجعت غير د بلطاجى ، ...
صناعته الكسب من أتوات الغايات والكباريات ... وإذا تركتها ...
ولم تدخل هى حياتى فقد حطمتنى وهدمتنى ... ماذا أصنع ؟ ... إنى
لبنى حيرة ... وإنى لأرتبى كل يوم فى هذا المقهى ، بعد مقابلتها ،
لأفتح فى نفسى ميدان صراع : هل أقدم ؟ ... هل أحجم ؟ ...
وأطرق غارقاً فى صمت طويل . . . ولم أشأ أنا قطع هذا
الصمت ... فسكت ، وجعلت أداعب بأصابعى أذن فنجان
القهوة ... إلى أن رفع رأسه مردداً :
— هل أقدم ؟ ... هل أحجم ؟ ...
فاكتفيت بأن قلت له :
— تلك هى الحركة الكبرى بين الخير والشر . . . وعليك
الآن أن تخوضها . . .

* * *

مرت الأيام بعد ذلك دون أن أرى علوى ، فقد اختفى من كل
مكان .. وإذا بى أتلقى خطاباً من أفاضى الصعيد ، بامضاء والشيخ
عليوه ، يخبرنى فيه أنه افتتح كتاباً من السكتاتيب فى تلك المنطقة
الناحية التى كان يرد ذكرها على لسانى فى أحاديثى مع «علوى» فى

ليالى السمر بالبار... وانه قد انقطع لتربية النشء من أبناء الفلاحين ،
وتبصيرهم بالفرق بين الخير والشر والفضيلة والرذيلة... وأن الموسى
عادت إلى حلق شعر رأسه زهداً... والعمامة والمسبحة ظهرتا لخدمة
التقوى البصيرة ، والورع الحقيقى مع العمل المفيد والسكوح المجدى ،
وأن المصباح الذى أضاء قلبه يجب أن يظل مرتفعاً عن الدنس ...
ولقد تركه لمصيره الطاهر معاهداً نفسه أن يحذو حذوه ، وأن ينهج
سيرته... وأنه يكفيه منه شعاع ينير له على البعد كالنجم السحيق ...
وكانت تلك نهاية المعركة ...

* * *

وختم صاحبي المرح قصته فائلاً :

- والآن هاأتدا قد سمعت قصة ذلك الرجل الذى كان
يسمى : الشيخ عايش ، وعلوى بك ، والشيخ عليوه . . . فما
حكمك عليه ؟ ...

فقلت له وأنا أرشف قهوتى بعد العشاء الشهى الذى قدمه إلى :
- فلنترك الحكم عليه لملائكة السماء ... فإنه سيصدر إليهم هذه
المرّة بملف زاخر ، سيقتضيههم فرزاً دقيقاً وحساباً طويلاً . . .
قبل أن يصدروا حكمهم بقوله النهائى أو طرده الدائم
من الفردوس . . .

لا كرامة لني في وطنه

كانوا في القرية يطلعون عليه اسم « زنجير » .. ولست أدري
أكان لهذا الاسم صلة بمنظره ؟ ... لقد كان أسود اللون ، قبيح
الصورة ، مخروم الأذن... يرتدى معطفاً عسكرياً ، نحاسي الأزرار ،
من بقايا الحرب العالمية الأولى ، قد رث عليه وبلى وضاعت أزراره
إلا واحداً ربطه بخيط من تيل ، وهو يحمل في يده هراوة كانت
فرعاً من شجرة السنط ، التي تظل «الكباس» القبلي... يرفعها ويجري
بها وراء الساخرين به والضاحكين منه ... وما أكثرهم !... ما من
أحد كان يأخذه على سبيل الجد ... وما كان هو يحفل بأراء الناس
فيه ... كان يكفيه دائماً رأيه هو في نفسه... كان له أخوة يصغرونه.
سنا تزوجوا واستقروا وانتجوا ذرية تسعى معهم إلى الغيطان.
وتعود منها بعد الغروب مسكة بزمام البهائم المحملة بعليقتها من
الحشائش وأعواد الذرة ... أما هو فكانت فكرة الزواج تثير
بالنسبة إليه ضحك القرية وهذرها وعبثها ... من هي تلك التي
ترضى أن تزوج من « زنجير » ؟ ...

وكان هذا هو السؤال الذي اعتدت أن ألقيه عليه ، منذ
أعوام طويلة ، كلما ذهبت إلى الريف :

— هل تزوجت يا زنجير؟ ...

— أبدأ ...

كان يقولها في شيء من المرارة والثورة ... فسكنت ألاحقه :

— وما السبب ؟ ...

— ما فيش فلوس ا...!

هذا كان تعليقه الوحيد... ورأيت أخيراً أن أبطل هذه الحجة،
فعرضت عليه أن أقوم عنه بكل نفقات عرسه من مهر وفرح
وثياب الخ ... لو ظفر هو بالعروس ... فسر لذلك وحمد وشكر ،
ولكن الأيام مرت ولا نتيجة لهذا ولا أثر... ولم أعلم ما حدث...
ولكني صرت بعد ذلك كلها مشيت بين الحقول وإلى جانبي
« زنجير ، أتأمل من أجليه كل فلاحه تيمس بقدها تحت ثقل الجرة ،
تيمس العود تحت ثقل السنبلة ... فأسألها :

— يا بنت ... أتزوجين الولد « زنجير » ؟ ...

فما أسمع إلا دقة على صدرها وصيحة :

— يا خبيتي ا...!

وتشتد في السير مجفلة هاربة حتى تختفي ... وإذا « زنجير »

بجواري يشيعها وهو مجروح ساخط مغتاظ :

— داهية لا ترجعك ... وأنا كنت أرضى!؟ ...

ثم يأخذ في إقناعي بأن كل هؤلاء الفتيات دون ما يستحق ،
ودون ما يريد ، ويأخذ بعد ذلك في حمد الله إذ ضرب على أبصارهن ،
فهذا الرفض منهن نعمة ... ولكني لا أقنع ، وأظل أطرح
السؤال على طوائف مختلفة من بنات القرية ... وأهبط في سلم
الجمال درجات ، وأطأ طء الرأس نيابة عنه وأقبل تضحيات ، حتى
وصلنا إلى درك لا نزول بعده ... فكل مشروبات القرية ، من
الحنفاء والعرجاء والحدياء ، عرضت أمره عليهن ... فما سمعت
قط غير تلك الصيحة المنكرة من الأفواه ، وذلك الدق المستنكر
على الصدور ... وتلك العبارة الواحدة من كل الشفاه :
— ضاقت علينا الدنيا ... ما بقي غير « زنجير » ١٩ ...

* * *

وصدنت وآمنت أخيراً بصعوبة زواجه ... فهذا رجل تنشأ
في القرية أضحوكة ، وشبت فتيات القرية لا يبصرن منه ولا يعرفن
عنه إلا أنه رمز السخرية ، ومناطق العبث ومثار الهذر .. لقد كان
في مجرد تقدمه إلى أسرة من القرية سوء أدب منه في نظرها ،
وتعد منه على كرامتها ، وخذش سمعتها ... إذ استقل شأها فخصها
دون أهل البلد بهذه المهانة وقلة التقدير ... هكذا كانت الأسرة
تدفعه عنها كما تدفع الفضيحة ... وبلغ الحال من سوء أن أصبح

«زنجير» شخصية تعيظ بها البنات المذنبات إذا أردت لها تأديباً .. ولم يشذ عن استخدام هذه «الأداة» التأديبية أحد حتى أنا ... فقد انتهى بي الأمر أن آمنت بما يؤمن به الجميع في القرية ... وصرت إذا أردت أن أشتم بنتاً مهملة من بنات الخدمة في البيت أو الحقل أكتفي بقولي :

— والله يا بنت لأزوجك من «زنجير» ! ...

فتطفر دموع الخوف والضراعة من عينيها في الحال ... وأدرك أن قد رفعت عليها بهذه الجملة سوطاً يقيم عوجها ويصلح فاسدها ... كل هذا و «زنجير» في ملكوت من نفسه ، وعالم من رأيه ، وحصن من «حالة معنوية» عجيبية ... مرتفع فوق لجج الاستهزاء العام، لا تعصف برأسه أنواء ، ولا يصل إلى عينيه رذاذ ولا ماء ... لظالما ساءلت نفسي في أمره : أهو جهود؟ ... أم هي بلاد شعور؟ ... أم هي صلابة شخصية وقوة إيمان ؟ ...

أردت أن أتندر به ذات يوم ، فقلت له :

— ومن التي ترضى أن تتخذها زوجة لك من بين بنات القرية؟،

فقال بلا تردد :

— البنات «سلطانة» ...

يا للعجب! ... «سلطانة» هذه هي أجمل بنات القرية طراً ...

هي الزرقاء العينين، العسجدية الشعر... التي يخشى التقدم إليها أجمل فتيان
القرية وأقوام... هي التي يتنافس فيها المتنافسون، ويتزاحم المتزاحمون،
من بين من فرزت مؤهلاته وبرزت صفاته... فما تمالكك أن صحت به :

— طيب اسكت... اسكت...

مرت الأيام... وعدت مرة أخرى إلى الريف بعد غيبة عنه
طويلة... فراعني ما أجد، وأذهلني ما أرى...

زنجير قد تزوج...

تزوج بمن؟...

بفتاة أجمل من سلطانة!...

وعلم زنجير بحضوري، فجاءني وكأنه يقول: «هذه المرة
تستطيع أن تسألني السؤال المعهود»... ولكنني كنت علمت الجواب
من قبل... فاكثفت بأن أقرأ على وجهه سطور انتصاره... بل لقد
قرأت ذلك على وجوه أهل القرية أجمعين... لم يعد «زنجير» في نظرهم
ذلك «الأخوكة»... ان الاسم لم يزل لاصقاً به... ولكن قد غسل
عنه كل معنى من معاني الهزم والسخرية...

كيف حدثت المعجزة؟... لم يخبرني هو... ولكن الذي تص
على شيخ وقور من شيوخ القرية، قال :

— حدث منذ ثلاثة أشهر أن حضرت إلى القرية «ترحيلة»

« لنقارة » الدودة من زراعة القطن وكان يعمل فيها بنات كثيرات من قرى بعيدة . فهن جميلات وفهن رشيدات ... وكان زنجير هو « الخولي » علمهن فإذا هو يلبس من بينهن فتاة هي أسطعن جما الأوفرهن سحر أوا أكثرهن فتنة ... بل هي حسن لم نر له مثيلا في قرينتنا ... فلزمها في العمل ، وتودد إليها ... وخفف عنها ... وكان لا يأمرها إلا بعروف ولا يعاملها إلا برفق ولا يحادثها إلا بلطف ... وتفتحت نفسه لها ببضاه جميلة كما تتفتح زهرة القطن ... وكانت الفتاة طيبة القلب ، فأبصرته « بعين » قلبها ولم تبصره بعين أذننها ... رأت « الانسان » ولم تر فيه « الأضحوكة » ... فهي من قرية بعيدة لانعلم عنه شيئا ... فلم يغم بينه وبينها سد قديم من تلك الشخصية المبينة بلبنات الضحكات ، في بلده ، على مدى الأعوام ... لقد بادته لطفاً بلطف ، وعند ما قال لها ما زحاذات يوم : « تزوجيني ؟ ... » لم يرعه إلا قولها : « لا نعم » ... فقال لها :

— صحيح ؟ ...

فقات :

صحيح ! ...

— تحلفي على المصحف ؟ ...

— أحلف ...

وأقسمت أنها جادة . وأنها لا تنطمع في زوج خير منه ، فطار

زنجر فرحاً إلى أهله يزف إليهم الخبر... ولم يصدق أهله هذا الكلام إلا بعد أن سمعوا قبول الفتاة بأذانهم... فارتفعت د الزغاريد، في القرية... ودفع زنجر المهر لأم العروس، فأبوها قد توفى وتزوجت أمها بغديره... وجاءها بخلق ودغوايش، فضة وخلخال ومرتبته ولحاف ومسندين ومخدتين، وحلة وطشمت وفناجين قهوة، وبراد شاي وصينية وأربع ملاعق وأربعة أطباق... الخ الخ... ثم أعدت العدة ليوم الفرح فأحضروا الجمل وطفق زنجر مع أخوته يزينونه بسعف النخيل والبوص والجريد والشال الأحمر... وأنموا صنع المودج الذي سيحضرون فيه العروس الفاتنة من بلدها... كل ذلك بين غناء أهل زنجر وغبطنهم بنوز هذا المظلوم... وبين نظرات الدهشة والحسرة والندم من بنات القرية اللاتي سخرن من زنجر، فأظفره الله بمن لا يصلن إلى كعبها ملاحه وطهارة ودمائة... . . .

أصغيت إلى كل هذا... وعلمت سر المعجزة... ، لقد جاءه الخير والتقدير ورد الاعتبار من قرية أخرى بعيدة... هكذا أنصفه الله... بالطريقة التي أنصف بها من رضى عنهم من الرسل والأنبياء... . . .

الدنيا رواية

الدنيا رواية حقا في نزار أولئك الذين يؤمنون بنظرية حلول الروح ... تلك النظرية التي تزعم أن عدد الأرواح في الكون محدود ، كما أن عدد الممثلين في المسرح محدود... وأن الذي يتغير هو الأدوار التي يتقمصها أولئك الممثلون... وهي أدوار لاحداها ولا نهاية ، في تلك الرواية الاستعراضية العظمى !...

إذا سايرنا أصحاب هذا الزعم في زعمهم ، فإن الصورة التي يمكن رسمها للدنيا تبدو جديدة بالتأمل... ومن السهل تخيل الأرواح في ظهورها واختفائها فوق مسرح الدنيا ، على الوجه الذي يحدث بالضبط في المسارح التمثيلية ... فهناك ، مثلا ، بعيداً عن هذه الأرض وشمسها وقرها ، مكان خفي ، يمكن أن نتصور فيه ملاكاً يقوم بوظيفة « الريجيسير » - أي مدير المسرح - يعطى الإشارة للشمس والقمر ، فتسلط الأولى أشعتها الذهبية القوية ، والآخر أشعته الشاحية الفضية على سطح الأرض... كما تسلط مصابيح « البروجكتور » الكهر بائية على خشبة دار التمثيل... ولا بأس من أن نتخيل ذلك « الملاك » في مكانه هذا يباشر أعماله اليومية ، وينظر في « اللوح » الذي أمامه ، المسطورة فيه الأدوار والأقدار »

ويستعرض ألوف الأرواح المهيأة للظهور على مسرح الدنيا ،
ويستقبل الألوف من الأرواح الخارجة منه ... ولاضير أيضاً
في أن نطلق الخيال أبعد من ذلك ، لينسج لنا قصة روح من بين
تلك الأرواح العائدة ...

* * *

ظهر الروح الذي زوى قصته ، خارجاً من الدنيا وهو مدهوش
هذهول ، كمن أفاق فجأة من نوم عميق ، وهو يردد هذه العبارة :
— يقولون إني مت ... أنا الآن ميت حقيقة ؟ ... زوجتي
إلني تتحطم تفجعاً ، تصبح بأني أمرت ، وأنى مت ... أخبروني
أيها السادة ... هل أنا حقاً ميت ؟

ولم يلتفت إليه والملاك ، المنهمك في أعماله ، الشاخص ببصره
إلى اللوح الذى أمامه ، والسجل الذى بين يديه ، واكتفى بأن
هز رأسه وقال كالمخاطب لنفسه :

— كلكم هكذا ... لا تريدون أن تصدقوا أنكم متم ... ماذا
أصنع لكم ؟ ... أنا ... ليس لدى وقت أنفقه في إقناعكم وإقامة
الأدلة والبراهير لحضراتكم ... تقدم يا ... ماذا كان دورك
في الدنيا هذه المرة ؟ ...

— كنت طبيباً ... وكانت لي زوجة ... آه ... إن زوجتي

هى التى تموت الآن ولا شك حزنًا علىّ أنا ... يا الله سيئنة ! ...
ونسى ذلك الطبيب - أوروحة - كل ما حوله ، وراح يذكر
كل دقيقة من دقائق حياته التى يؤكدون له أنها انتهت ... كان
طبيباً جراحاً ، تخرج فى كلية الطب متفوناً ، وكل شىء يبتسم له ، لقد
كان من أولئك القلائل الذين ينالون دائماً ما يريدون ، كان حسن
المنظر لطيف المعشر ، يظفر بنظرات كل مرضة وطالبة ، لكنه كان
يعتقد أن هناك امرأة واحدة لا بد أن تستحوذ على كل قلبه وفكره
وجسمه ، ولا بد لها أن تأتى يوماً ، إنه أرادها ولا بد له أن ينالها
فالقدر قد عوده أن يذيله كل ما يمتنى ، فالنجاح فى مهنته تمناه
ففاض به ، وقد تمى المال والترفت ، فجاءه المال من عمله ومن ميراث
عائلى ... وهو بعد ذلك يمتنى أن يلقى الزوجة التى يعطيها حياته
وكده وكسبه ... فوجدها ذات يوم فى صورة مريضة ، أتت
ليجرى لها عملية استئصال الزائدة الدودية ، ما إن وقع بصره
عليها حتى اضطرب ... أترى الأرواح تتلاقى حقاً؟ ... كيف
تلاقت روحاهما من النظرة الأولى ؟! ... وكان من المستحيل عليه
أن يتصور أنه هو الذى يجرى لها الجراحة بيده ، ويشق جسدها
بمديته ... إن قلبه لن يحتمل ذلك ... واعتذر لها ولأهلها بشتى
الحجج ، وعهد بأمرها إلى جراح آخر قال إنه أمر منه ... ولم

تدرك هي معنى ذلك الاعتذار إلا يوم فاتحها قائلاً : ولقد خلقت لأكون زوجك لاجراحك،... وكانت هذه الزوجة كل شيء في حياته ... وكان هو كل شيء في حياتها ... ما من كاتنين انفقوا والتصقا وأصبحا كائناً واحداً مثل هذين الزوجين ... كانت زوجته تقول له يوم ترى جرحاً في أصبعه : يا للعجب ! ... كان الألم في أصبعي أنا ... أهو وهم ، أهو حقيقة ؟ ... كيف ينتقل الوجع المادى من أصبعك إلى أصبعي هكذا أيها العزيز ؟ ... ، وكان هو يقول لها : «العجب حقاً هو أن كلامك هذا هو عين ما عندي ... لقد شعرت فعلاً يوم جثنتي لأشق جسدك ، كأن المشروط سيشق جسدي أنا ، وأنا بالطبع باعتباري جراحك ان أعطى مثلك البنج ، فتصوري جراحة تجرى لي بغير بنج ، بينما أنت المريضة لا تحسین الألم ! ... ، وعاش هذان الزوجان السعيدين أعواماً كلها هنا ... ولم ينجبا أولاداً ... ولم يحل ذلك دون تعلق أحدهما بالآخر ... بل لقد كرها الأطفال حتى لا يسبحا لغيمة أسف أن تخيم على حبهما ... انهما هكذا ناعمان أحدهما يكمل الآخر ... ولا حاجة لهما بثالث ... وجاء اليوم المشؤوم ... فقد نهض على عادته في الصباح المبكر لإجراء عملية جراحية ، ولكن زوجته أحسست في ذلك اليوم خطراً . . . وتمنأت بكاراة ، كما تمنأت آله

الرصد بكسوف الشمس ... فتوسلت إليه أن يبقى معها ذلك
النهار ... فأبى التقصير في واجبه ... إن مرضاه في انتظاره ...
فادعت المرض ... فلاطفها ، وداعها حتى كشف بظروف عن
تحايلها ، وقبلها قبلة طويلة ، وانفلت من بين ذراعيها المتشبثتين
بعنقه ... وتركها جامدة كالتمثال . . . وفي الظهر عاد وفي جسمه
السم ... فقد شرط قفازه أثناء الجراحة ، وسرى الداء في دمه من
أصبح مجروحة ، واجتمع حول فراشه أساتذة الطب وأساطين
العلم لينقذوه من الموت ... ومن خلفهم زوجته تموت وتحيا مع
كل نفس من أنفاس قرينها الحبيب ... ولكن ... كان الموعد
محدداً لانهاء دوره في الحياة عند هذا الموقف ... وكان على الروح
في ذلك الوقت أن يخلع الجسد كما يخلع الممثل ثيابه الثقيل ...
وعندما كان يسلم النفس الأخير ، بين شهقات امرأته المسكينة ،
وبريق دمها المنساب ، ووقفها المترنحة المتجلدة ، وابتسامتها
المموهة الدامية ، خيسل إليه أنه يرى الحقيقة تضطرب في
الظلام خلف عتبة الحياة .. نعم ... الحقيقة هي أن الحياة ليست
حقيقة ... كان احساسه احساس ذلك الممثل الذي عاش دوره ،
ونسى أمره ، وأبكى الحاضرين وبكى هو نفسه ، إلى أن فرغ من
الموقف الأخير ، وشعر بنزول الستار ، فالتفت ، فإذا عينه تلمح

فى الظلام «السكواليس» بما فيه ومن فيه ، فسكن نأثره ، ورفع يده
ليمسح دمه ، قبل أن يذلف إلى داخل المسرح فيسخر منه
زملاؤه ويسخر هو من نفسه .. ولكن عبرات المشاهدين كانت
ترده إليهم وإلى التعلق بهم وبدوره .. فالعواطف فى ذاتها
حقيقة ... كذلك الطبيب المحتضر ... خطر له أن يبسم لزوجته
الثكلى ، وأن يمس لها أن الأمر زيف فى زيف ، ولكن ...
كيف يكون كل هذا الحب زيفاً ؟ ... مهما يكن ما بعد الحياة ،
وما بعد التمثيل فإن الدموع فى ذاتها جديرة بالاحترام ، والحب
فى ذاته أجل من أن يهزأ به ، إن الحب حقيقة ، وإن ما يربطه
بزوجته لا يمكن أن يخلع مع رداء التمثيل ، ولو اجتمعت عليه
كل ملائكة السماء .. وهكذا ترك الميت خشية «الأرض» وخاع
رداء جسده ، ودخل على «الملاك» المدير ، روحاً عارياً مجرداً ...
ولم يحس بعد فرناً كبيراً بين ما كان منذ لحظة وما يكون الآن ...
أين هو ذلك الموت الذى يقولون عنه ؟ ... ما الذى تغير فيه ؟ ...
ها هو ذا يجب زوجته حباً جنونياً ... وكل أمه أن يلقاها ...
ولكنه لا يستطيع ... لأنه ميت ، كما يقولون ... إذ يراها ،
ويرى جزعها ، ويريد أن يمد يده إليها ، وأن يحادثها بهون
عليها .. ولكن صوته لا يبلغها ، ويده لا تطيع إرادته ... ما من

أعضاء مادية تأتمر الساعة بأمره ... كأنها أشياء منفصلة عنه ... لا يملك تحريكها ، حاله الآن كحالها عندما كان ينتابه في الدنيا كابوس فيريد وهو في فراشه أن يتحرك ، ولكن إرادته لا تطاع ... إنه الآن إرادة مطلقة في الهواء لا تسيطر على أجسام ، ووعى مطلق في الفضاء لا يؤثر في أشخاص ، عدا ذلك فهو هو لم يتغير فمن يدريه أن هذا موت ؟ ... لعله نوم عميق أو حلم عابر أو كابوس مؤقت ! ...

والتفت مرة أخرى إلى « الملاك » المنهمك في أعماله وقال له :

— أنا لا أحس أني ميت ...

فنظر إليه « الملاك » نظرة شذراء وقال :

— أنت حر ...

— أريد أن أعود إلى زوجتي ...

— قل هذا لعزرائيل من فضلك ...

— عزرائيل ! ... أنمزح ؟؟ ...

فلم يتمالك « الملاك » وقال نافذ الصبر :

— ليس عندي وقت للمزاح يا سيدي ... آه ، لو درى

عزرائيل ! ... ذلك الذي لا تبطل له شكوى من كثرة أعماله ،

لمجرد قبضه عدة أرواح كل يوم ، ينفض بعدها يديه ويستريح ...

أما أنا فيجب على أن أقاسى من أرواحه وأتحمل حماقاتها ، وأصنى إلى ثرثرتها .. يا حاضرة الفاضل ... ألم يقبضك عزرائيل؟ ... كيف تريد إذن منى أن أعيدك إلى زوجتك؟ ... وإذا كان كل روح يقبضها زميلي أعيدها أنا ، فما الفائدة إذن من قبض الأرواح ١٩ ...

— أنا شخصياً لا أرى فائدة ... لقد كنت مع زوجتى فى أتم هنا ... فلماذا تتدخلون أتم لتفروا بين المحبين ١٩ ...

— لا نستطيع يا سيدى الفاضل أن نتركك فى هذا الدور ، أعنى فى هذا الجسد كما تحب أنت وتشاء ، لأن روحك تلزمنا فى عمل آخر ...

— عمل آخر؟ ...

— طبعاً ... لا بد لك من جسد آخر تحمل فيه ، ودور آخر تقوم به ... وهل تفضل أن هذا كان أول أدوارك أو آخرها؟ ... لقد سبق لك أن حملت فى مئات الأجساد ، وقتت بمئات الأدوار ... — أنا؟ ... أنا سبق لى أن كنت شيئاً آخر غير زوج يجب زوجته ، وطبيب جراح فى ...

فابتسم «الملاك» ابتسامة الساخر المتبرم ، الرائى لجهل محدثه ... وأخذ يقلب فى صحت صفحات بحمله الضخم ، إلى أن وقف على صفحة ، نظر فيها لحظة ثم قال :

- اسمع يا سيدى ... قبل أن تسكرون زوجا وطيبياً ، كنت
لصاً سكيراً ، فتك براقة فى ملهى ليسرق حلينا ... ومات على
المشقة ...

- أنا ؟ ...

- انتظر .. ثم كنت قبل ذلك جندياً بسيطاً قتل فى معركة ..
ثم كنت طفلاً مات بالفتريا ، ثم كنت امرأة ماتت فى الوضع ..
ثم كنت رجل دين مات بالشيخوخة ، ثم أميراً مات مسموماً ...
ثم كنت ساحراً هندياً لدغته أفعى ، ثم كنت فتاة انتحرت فى
حادثة غرامية ...

- كفى ... كفى ... إنى لست مجنوناً لأصدق هذا الهراء ...
أنا طبيب جراح ... ولى زوجة أحبها ، وإذا لم ألحسق بها فهمى
بلا بد لاحقة بى ... ولن أصدق أبداً أنى كنت أمثل دوراً ...
فنظر إليه الملك ، بانسامة الهازمة وقال :

- كل مرة تقولون لى عين هذا الكلام ، أنت وغيرك ...
إنكم لا تصدقون أن هذا كان تمثيلاً ...
- تمثيلاً ؟ ... جهالى وحبى لها .. وحياتنا معاً التى لا تتصور
حياة غيرها ... لا ... لا ...

- إنك لم تزل واقعاً تحت تأثير دورك ... إلى أن تذهب إلى

البحر ، فتمغسل ذلك الطلاء ، وتزيل ذلك ، المسكياج ، عندئذ فقط
تكون على استعداد لارتداء الدور الجديد ...
وأشار الملاك ، إلى أحد مساعديه العديدين ، إشارة ذات
معنى ، فتقدم ليقود روح الطبيب ، والسكنه وقف ونظر إلى عتبة
الباب وقال لرئيسه :

— عزرائيل أرسل إلينا روح امرأة ...

ولم يكذب يتم كلامه حتى ظهرت بالباب روح الزوجة ، وما كاد
روح الزوج الطبيب يرى روح زوجته ، حتى صاح فرحاً :
— ألم أقل إنها لا بد لاحقة بي ...

واندفع كل منهما نحو الآخر ... وقالت روح الزوجة :

— آه يا زوجي العزيز ... لم أستطع البقاء هناك بعدك ، لقد
كانت ليلة فظيعة ... تلك التي رأيت نفسي فيها وحيدة بدونك ،
أناديك في الظلام ... ولم أتمالك نفسي عند الفجر ، وأنا محطمة
الأعصاب فتناولت كل ما كان بجوارى من أفراس الأسبيرين
طالبة النوم الأندى ، والراحة السمرمية ، أو اللحاق بك ، وهاهو
ذا أملى يتحقق وأراك ... كيف أنت أخبرني ... إنك بحير فيما
أرى ، كيف قالوا إذن إنك مت؟ ... أنا أيضاً لست ميتة فيما أعتقد ...
كنت أتمنى الموت ... وقد شعرت عندما استدعوا الطبيب والأسعاف

بعد تناولي الأفراس ، بأنهم يمسون حولي بكلمة «الموت» ،
ولكن ... أين هو الموت ١٩ ... أين هو ذلك «الموت» ، ١٩ ...
ولم يستطع «الملاك» صبراً ... فنفخ صائحاً :
— أف ... لعنة الله على هذه المهنة ...

* * *

طفق الروحان يثران كالأطفال ، وقد أعماهما الفرح عن كل
ماهداهما ، ولم يحفلا بمن حولهما ، وأدرك «الملاك» أنهما لن يفرغا
من الحديث ، إذا ركا وشأنهما ، فأرما إلى مساعده أن يقودهما إلى
حيث ينسلان عنهما آثار دوريهما ... إلى «بحر النسيان» ...
واتجه المساعد نحوهما ليذهب بهما ، فجفلا منه وابتعدا عنه ،
والتفتا إلى «الملاك» صائحين :

— أيراد التفريق بيننا ها هنا أيضاً ؟ ...
— لا بد من ذلك ...

— تتوسل إليك ... تتوسل إليك أن تدعنا معاً دائماً ... في
كل مكان ، وفي كل زمن ، وفي كل دنيا ... ماذا يكلفك هذا
أيها الملك اللطيف ؟ ...

— هذا قد يحدث لنا بعض الارتباك في العمل ...
قالها بصرت بدت فيه رنة لين ، فمضى الزوجان في الإلحاح :

— تتوسل إليك ... مثلك لن يعدم وسيلة ... إجمعنا دائماً
ولا تفرق بيننا أبداً ...

— سارى ... سارى ... ربما دبرت لكما ذلك ... لكن إذهبا
الآن قبل كل شيء واغتسلا في البحر ...
— شكراً لك ...

لفظها الروحان بجملة وفرح ... وذهبا في الحال مع المساعد
صاغرنا إلى بحر النسيان ...

وهناك رجداً بحراً هائلاً له شاطئ جميل مثل شواطئ المصايف
الشهيرة ... والبحر يعج بالأرواح السابحة فيه . نخلب لهما المنظر ...
واندفعنا إلى البحر ضاحكين سعيدين كما كانا في الدنيا ...
وقفزنا معاً إلى الماء ، يتناغيان بأرق الأسماء ، وغمرهما هرج
أبيض كأنه رغوة الصابون ...

فإذا هما يحسان كأن شيئاً يزول عنهما رويداً رويدا ... وإذا
كل منهما يردد من أعماق نفسه متعجباً متسائلاً : « من أنا ؟ ...
ومن هذا الذى بجوارى ، ؟ ... وخرج من هذا البحر من خرج
إذعاناً لأوامر المساعدين ، وبقيهما حتى أشار إليهما المساعد
الموكل بهما ، فخرجا كما تخرج اللوحه المكتوبة من الماء .. لا أثر
في نفسيهما لحرف واحد من حروف حياتهما الماضية ... وأعارهما

المساعد إلى « الملاك » وقد جاءت نوبتهما في المشول أمامه ، لتوزيع الأدوار الجديدة ، فسأل كلا منهما :

— هل تعرف من أنت ؟ ... وأين كنت ؟ ... وهل تعرف من هذا الذى بجوارك ؟ ...

فأشار كل منهما بالنفى ... فقال « الملاك » كالمخاطب لنفسه وهو يراجع سجله الضخم :

— إنى وعدت مع ذلك أن أجمعكما مرة أخرى فى دوران يصلحان لذلك ، فلتمكن أنت إذن طياراً رياضياً ... وأنت فتاة عاطية ... أهبها المساعد ... إقذف بهما إلى مسرح « الأرض » ...

* * *

ككل شىء كان قد أعد ليصير « هو » طياراً فقد خرج إلى الدنيا طفلاً فى أسرة متوسطة المركز طيبة المنبت ، وشغف فى حدائمه بالألعاب الرياضية ، وغداقى وتعلم فى المدارس ، وأصبحت له ميول وموجهات ، بعضها يدافع البعض ، ولكن الظروف النهائية وجهته على الرغم من كل شىء إلى الطيران ، فدرسه ، والتحق بإحدى شركات الملاحة الجوية ... أما « هي » فقد شبت خيالية البزعة مدللة مترفة فى أسرة ميسورة الحال ، مفسكة الأخلاق ... الأب مشغول بنفسه وملاهيه ، والأم ساذجة ضعيفة

الإرادة ... وواعت الفتاة بالرتص والحياة الصاخبة الحديثة ...
وكان «هو» في طرف من المجتمع و«هي» في طرف ، ولم يكن
من السهل أن يلتقيا ... فهو لا يرتاد المجتمعات التي ترتادها هي ،
ومع ذلك فقد كان لا بد من التلاقي، وقد حدث ...

كان يقود طائرته ذات يوم... وكان الباب الصغير الذي يفصل
بين مكان قيادته وبين مكان الركاب مفتوحا على غير العادة ، فليح
في أحد المقاعد فتاة تقرأ إحدى المجلات ... ما كاد يراها حتى
ارتجف ، وأرتجفت معه الطائرة بمن فيها ، فقد غفل لحظة عن
قيادتها ... وانزعج الركاب قليلا ، ورفعت الفتاة أهدابها الطويلة ...
فتقابلت عيناهما ... وعجب مهندس اللاسلكي لما حدث ونظر لي
الطيار بجواره ، فألفاه يصيح بين ضوضاء المحركات قائلا : «إني
أعرفها ... أين رأيتها؟ ... متى رأيتها» ؟ ... وما كاد يهبط بالطائرة
في مطار الوصول ، حتى قفز منها وتبع الفتاة ، وتقدم يخاطبها كأنه
يعرفها من قبل ... أما هي فلم تنهره ولم تغضب منه ، بل أحست
الارتياح والرضا ، وشيئا من الاطمئنان الخفي إلى هذا الشاب ...
ومضى هو يقول باخلاص حار :

— إني آسف إذ أضطر أن أقول لك تلك العبارة التي ابتدأها
الشبان اليوم : « أين رأيتك من قبل » ؟ ... ثقي أني لا أتخذها حجة

لمحادثتك .. ولكنى ... عندما وقع بهصرى عليك شعرت فى الحال
أنى أعرفك وأنى رأيتك فى مكان ما ، انتظرى ... ربما تلاقينا
آخر مرة فى ... فى بحر ؟ ...
فأجابت باسمية :

- من الجائز ... فى « بلاج » من هذه « البلاجات » ...
- ربما .. أخشى أن تكون الطائرة قد أزججتك عندما
ارتجفت ...

- لا ... إنى فقط عند هبوط الطائرة ، أحس عادة بعض
الصداع ... ولكن عندى دواء لذلك ...
- قرص واحد من الاسبرين يكفى ...
فظهر فجأة الارتياح على وجه الفتاة وهمست :

- اسبرين ! ... أرجوك ... لا تلفظ هذه الكلمة ، لا أمقت
شيئا مثلها أمقت الاسبرين ... ربما اتهمتنى بالخبيل ... ولكنى منذ
صغرى أرتاع لمجرد رؤيته ... ساحبنى ... هنالك أشياء تولد فىنا
ولا نستطيع لها تعليلا ...

- لا تؤاخذينى ... إنى آسف لم أقصد إيداعك مطلقاً ...
- أعلم ذلك ... هذا ليس ذنبك ... إنما هى نزوة من نزواتى
ليس لها مبرر ... ألا يتفق ذلك أحياناً لكثير من الناس ؟ ...

ألا يحدث لك أنت أيضاً أن تذكره شيئاً بدون سبب؟ ...
- نعم ... نعم ... أنا أيضاً في الصغر كنت أحس الاغماء
كلما ذكرت أمامى كلمة «عملية جراحية» ... وعمياً حاول أهلى
تعليل ذلك ... ولكن هذه الحالة زالت بزوال عهد الصبا ...
وأصبحت بعدئذ شخصاً عادياً ...
- أ رأيت؟ ... فينا أشياء كثيرة متقاربة ...
- هذا من حسن حظى ...

* * *

منذ تلك الحادثة الأولى ، وهما يشهران كأن شيئاً يجذب
أحدهما إلى الآخر . . . ولم يمض قليل حتى تم بينهما الزواج ،
ولكن ... مرت الأيام وكل منهما يلحظ أنه يسير فى طريق غير
طريق الآخر ... هو يأتى من عمله متعباً فيجد المنزل يصخب بأنغام
«الرومبا» و«الفوكس تروت»، و«الهوجى بوجى»، فيذهبوا برفق :
- أما تكفينى طول النهار ضوءاء المحركات؟ ...
فتجيبه بتبرم :

- محركات؟! ... هذا كل ما تعرفه ... أنت لست
«رومانتيك» ...

وكان يبلع هذا الخلاف بينهما فى الاتجاهات ... وكان يعمل

التنفس بأن هذا طيش قد تحوه الأمومة ... وأنجب منها طفلين جميلين ، ولكن الأمومة لم تقهر عندها المزاج ... بل المزاج هو الذى قهر الأمومة ... وأمسى الزوج الطيب يجد ليالى زوجته مشغولة كلها بالحفلات والسهرات .. وتعدى الأمر إلى ما هو أمر .. فتدخّل عليها يوماً فوجد لديها شاباً لا يعرفه ... زعمت أنه من رفاق الطفولة ، وأنه أخوها فى الرضاع ... وقام بين الزوج وزوجته شجاراً ، حسمه الزوج بالحسنى مرّةاً لأولاده .. ولكنه أدرك عندئذ أن علة شقائه فى الحياة هى هذه المرأة ... وكرت الليالى حراء بالنسبة إلى الزوجة اللعوب ، بيضاء من السهاد ، سوداء من الهم ، بالنسبة إلى الزوج المنكود .. ولم يعد يحسن عمله لقلة نومه واعتلال صحته ، وسمع همساً فى الشركة المتدمرة ينذر بالشر ، كما سمع همساً عن سلوك امرأته يندى له الجبين الحر ... وأكلت نفسه الهموم ، ونخرت فى قابه الشكوك ... وفى ذات ليلة دهم زوجته وهى فى أحضان شاب ... فارتاعت وقالت متاعمة انه معلم رقص يعلمها الرقصة الجديدة ... وفقد الزوج صوابه فأخرج مسدسه وأطلق على زوجته رصاصته أردتها قتيلاً ... وقفز «معلم الرقص» المزعوم قفزة «فوكس تروت» من أعلى السلم وهرب كما يهرب الثعلب من حظيرة الدجاجة .. وسمع الجيران الطلق النارى ، فصاحوا ، وأقبل «البوليس» ، ينفخ فى صفارتهم

وثاب الزوج إلى رشده ، وفضن إلى الفضيحة ، فأفرغ في رأسه
بوصاصة أخرى أردته قتيلاً هو الآخر ...

ورفع الملاك ، بصره من فوق ببجله الضخم على شجار روحين
داخليين عليه ... أحدهما يقول للآخر :

— سخيف ! ... أقسم أنك سخيف . . . تطلق على مسدسك
السبب لأنه كهذا ؟ ... ما أضيق ذهنك أيها الزوج المغفل ! ...
ولكن هل ينتظر من مثلك تصرف غير هذا ؟! ... أنك طول
عمرك كنت زوجاً مغفلاً ...

— اسكتي أيها المرأة ... لا داعي لسلاطة اللسان ! ... ولكن
الذنب ليس ذنبك ... الذنب ذنبي أنا ... لا شك أني جننت حتى
أقتلك وأقتل نفسي معك في نفس الوقت ... ما الفائدة ؟ ... ماذا
فعلت أنا إذن ؟ ... ها أنت ذى معنى هنا أيضاً ... يا اللصيبة ! ...
يا اللصيبة ! ...

ولم يجد الملاك ، بدأ من التدخل ، فصاح فيهما طالباً إليهما السكن
واحترام المسكان ... فتقدم إليه الزوج - أو على الأصح روحه -
صارخاً بتوسلاً :

— يا ملائكة السماء ! ... يا شياطين جهنم ! ... يا عفاريث
الجن ... خلصوني من هذه المرأة ! ...

مدرسة المغفلين

هب من فراشه بعد منتصف الليل على طرُق الباب ، وقام
ليفتح ، وهو كالسكران من حلاوة النوم ، ومشى في دهايز مسكنه
الذى يببت فيه وحده ، مشية غير الواثق من يقظته ، ثم فتح بغير
تفكير ، وإذا شاب يدخل صأحا :

— ارحموني ... ارحموني ...

ويندفع إلى البهو ، فيضيء أنواره كلها ، ويختار مقعداً ضخماً
نخما يرتجى فيه ، ويخرج من جيبه ورقة ، طفق يقرأ منها بأعلى صوته :

— ارحموني ... ارحموني ...

فأقبل صاحب البيت يجور قدميه ويسأل متثابراً :

— ما هي المسألة ؟ ...

— المسألة خطيرة جداً ، انه الحب ، انه السهاد ، انه البعاد ..

طول الليل وأنا أنظم هذه القصيدة ، لعلمها ترق وتمن ، لقد قطعت
لها قلبي ، لأضع في كل كلمة قطعة ... اجلس واسمع ...

فلم يجد صاحب الدار بدأ من الإذعان ، فالضيف صديق
لا يجب إغضابه ، وهو في عرف الذوق واللباقة مكلف ياكرامه
وارضائه ، فحاس مكرها ، يخالب السكرى ويتجلد ، ويصارع النعاس

ويتماسك ، ليسمع شعراً ونظماً في المربع الأخير من الليل...
ونشر الضيف الورقة في يده وأنشد :
ارحموني ... ارحموني ...

طار نومي من عيونى
وتنبه صاحب البيت وقال وهو يفرك أجنفانه الجراء :
— عيون من النى طار نومها؟ ...
— عيونى أنا طبعاً ...
— آه ... طبعاً ... عيونك انت فقط ...

وهضى الضيف فى السلاوة ، حتى قطع فيها شوطاً ، فلم يجرد
لإنشاده صدى ، ولم يسمع على خريدته تعليقاً .. فرفع بصره إلى
ذلك الذى يلتقى عليه أبياته ، وينثر عليه آياته ، فوجده يترنح
ويتمايل ... لا من الاعجاب ... ولا من الطرب ... طبعاً ...
فكف عن القراءة وصاح :

— أنا آسف ، يظهر انك متعب ، خير الأمور أن تقوم ...
فأيقن الناثم بالفرج ، ولم ينتظر ، ووثب من مقعده ، كأنه عبيد
أعتق ، أو سجين أطلق ، ولسانه يلهمج بالشكر ، ولسكن الضيف استأنف :
— نعم ... خير الأمور أن تقوم فتصب على رأسك كمية من
الماء البارد ، لتفريق وتنشط وتسمع بقية القصيدة ، لأنها طويلة جداً ...

وهنا لم يطاق صاحب البيت صبراً ... ولم ير في ذمته للضيافة حقاً .. فانفجر يلعن الحب والمحبين ، والشجر والنثر ، وقصائد الغناء والبهاء . وكل ما على الأرض من نساء .. وترك الميكان .. وذهب إلى حجرته ، واندس في فراشه ونام . . .

* * *

مرت شهور على تلك الليلة ، وهو لا يعلم من أمر صديقه المتيم شيئاً ... ثم ترامت إليه الأخبار بأن ذلك الغرام الذي أنشدت فيه القصائد بعد منتصف الليل ، قد جر صاحبه إلى أخرج المآزق ، فالحيبة معلقة بعنقه كأنها قصيدة من المعلقات ! ... لا بد من الزواج ... تلك صيحتها التي لا تنزل عنها ، وبغيتها التي لا مقر منها ... ولكن كيف يتزوجها ، وقد عرف عنها ما عرف ؟ ... إنها فتاة لعوب ، من أولئك الفتيات المعروفات على شواطئ المرح ، المبرزات في ملامى الغزل . كم داعبت ولاعبت ... وقتنت وسحرت ... ولو أنطق الله سلك التليفون لجر بعدد مغازلاتها ... ولو نحدثت رمال البلاج وموائد الأوبرج ، ولما اختلفت على مقدار غمزاتها وبسماها ولفقاتها ...

ووقف حبيب الأمس وقفة الذائد عن عنقه ، الغيور على اسمه وشرفه ... كل شيء إلا الزواج من هذه الفتاة ... إن الحب

شيء والزوجية شيء آخر... إنه ليس مغفلاً حتى يخاطب بين مسائل الغزل ومسائل المستقبل... لا... لن يتزوجها... على الرغم من جمالها الفاتن ومركز أسرتها البارز... أما هي فقالت بلسانها ولسان من توسط في الأمر أن لعب الفتاة قبل الزواج لا يدل على شيء، وقد أصبح مأوفاً في عصرنا الحاضر... عصر الحرية والنور... فكثير من الزوجات الناجحات شبعن أعباء ومغازلة قبل الزفاف... إنها حجة واهية، يجب ألا يتذرع بها رجل جاد... وانتصرت المرأة في النهاية، كما تعودت دائماً أن تنتصر... ووقع الرجل في الزوجية، كمن يقع في حفرة،... لا يدري كيف لان وأذعن، وقال «نعم»،... ولا يذكر بالضبط كيف ساخت قدمه... ولكنه أخذ يعلل نفسه ويميزها ويقنعها بقوله: «مع غيري ربما سحت المخاوف... ولسكن معي أنا، مع هثلي... وأنا أعرفها أكثر من أمها التي ولدتها، وهي تعرفني وتعرف طباعى الغنيمة وشكيمتى القوية وغيرتى الشديدة وعيني الساهرة،...»

* * *

هذا ما كان من أمر الضيف المغموم، وأما ما كان من أمر صاحب البيت، فهو لا يعرف الشعر ولا الحب... وكل ما يعرف أن وحدته في بيته قد ثقلت عليه... وأن البيت بلا امرأة، جسد

بلا روح .. وأن همه في منزله أن يخرج من حجرة ايدخل أخرى،
ولسان حاله ينطبق على الأغنية الشعبية القديمة :
« المزوية ، طالت عليه

يا أمي اخطبي لي حلوة وغنية
ولم يكن لديه أم تخطب له ... ولم يكن من الضروري عنده
أن يتشبهت بشرط الحلوة الغنية .. يكفيه الحل الوسط ... إنه
رجل مسالم قنوع ... ولسكن ، من يبحث له ؟ ... وهنا تذكر سيدة
من صديقات الأسرة ... امرأة نصف وزوجة رجل محترم ، لها
علم راسخ بأخبار المجتمع الراقى ... خاطبها بالتليفون ، وأبان لها
عن طلبته ... فقالت ضاحكة : « أتقبل نصيحتي ؟ ... الزواج في
عصرنا الحاضر كما يقول المثل السائر : « على عينك يا تاجر ، ...
الطريقة المنسبعة الآن أن تحضر المجتمعات والحفلات وتختار من
تعجبك ، وتعال عنها ... وها هي الفرصة سانحة ... في الأسبوع
المقبل حفلة خيرية في « الأريزونا » ستلقى فيها كل أنيقات القاهرة ،
من سيدات وفتيات ... تعال وانظر ... واخبرني هناك وأنا
أدلك ، ...

ووافي موعد الحفلة الخيرية ... وكان مساء جميلا .. لمعت فيه

عيون النجوم وتألق القمر ... فارتدى رداء السهرة ، وذهب على .
بركة الله ... ولم يمض قليل ، حتى غاص في بحر أضواء السماء
والسكران والذمائم ، وأوغل في روضة الشجر والبشر ... وامتدت
حواله أيدي الأغصان وأذرع الحسان .. واستقبلته كراعب بائعات
الفتنة في صورة بائعات للورد ... وأحطن به من يمين ومن
شمال ... إنه حصار الجمال ... ورد يبيع ورداً ... وأزهار تحمل
أزهاراً ... فأخرج من جيبه النقود عن غير وعي ، ونثر وبذر ،
ليحصد البسات والنظرات ... ها هي دى سوق الملاحه والرشاقه
والدلال ، ماذا يأخذ منها ، وماذا يدع ؟ ... ومن يجب ومن
يكره ؟ ... ومن ينبذ ومن يختار ؟ ... ففشى بهمه ، وزاغ نظره ...
وارتبك وحرار ... ثم اتبته على صوت يناديه ... فإذا هي السيدة ،
الخبيرة التي سألتها هدايته ... أقبلت عليه وقادته كالربان الماهر ،
في خضم موائد الأكل ومواكب الحسن ... وهمست في أذنه :

— ألم تعجبك واحدة ؟ ...

فقال على الفور :

— أعجبني الكل : أحب هذه ذات الثوب الوردى ، وأحب
تلك ذات الثوب البرتقالى ، وأحب الدائبة ذات الثوب البنى ...
وأحب البعيدة ذات الثوب الكحلى ... وأحب الضاحكة ذات

الثوب البندقي ، أحب هذه ، وهذه ، وهذه ، وهذه ..
أحب الجميع ...

فضحكت وقالت :

— ليس من المعقول أن تزوج كل الحفلة ... يجب أن يقع
اختيارك على واحدة بالذات ...

— هذه الحفلة « الخيرية » وإن شئت فقل « سوق النخاسة
العصرية » ، تعج ببضاعة تبهر العقل ... ولم أعد أدري أنا البائع
في هذه السوق أم المشتري ؟ ... لقد تمّت وضللت ... تخييرى لى
أنت بصائب حكمتك وواسع خبرتك ! ...

فأشارت إلى مجموعة من النساء متلائمة ، تزدى بالمجموعة
الشمسية ، وقالت :

— أاق نظرة على هؤلاء ...

— أكلمن للزواج ؟ ...

— بالطبع ... كل من ترى هنا . الفتيات يردن أن يتزوجن
والزوجات يردن أن يتلقن ...

فأرسل نظرة شاملة على تلك النحور العارية ، والصنادور
المكشوفة ، والبسات الفاتنة ، والنظرات المفتونة ، وقال فى نفسه :
« أين ذلك العهد الذى كانت تسمى فيه المرأة « السيدة المصونة

والجوهرة المكونة ١٩... ترى ماذا يجب أن تسمى اليوم؟...
وأخذ يفكر في اسم أو لقب أو وصف يمكن أن ينطق
عليها الآن ... ولكن جبل نفكبير وانقطع فجأة ... فقد لمح عن
بعد صديقه الضيف ، صاحب القصيدة ، يدخل من الباب ، وقد
أحاطت به بأعناق الورد كالمعتاد ... ولمحته في عين الوقت الست.
الدليلة الهادية ، فهمست قائلة :

— صاحبك ا ..

— نعم ... إنه يدخل وحده .. عجباً ا .. أين زوجته إذن؟ ...
بلغنى أنك كنت إحدى الساعيات في الخير بينهما ... وكنت ممن
توسط في أمر ذلك الزواج ...
فقالت السيدة بصوت الجدد :

— حقيقة ... شوشو صديقتي ، وكنت أظنها تمشي بعقل بعد
زواجها ... ولكن ، كلام في شرك ... أنا لا أحب أن أكون
مستولة عنها الآن ... أنا أفهم أن يكون للزوجة بعض الحق في
اللهو ... ولكن على شرط أن تكون في منتهى الحذر حتى لا يلاحظ
عليها شيء ... وأن تتصرف بنهاية الحرص حتى لا يبدو على
سلوكها شك ... أما شوشو فلا أدري ماذا جرى اليوم لعقلها ...
إنها - بضلا عن علم الجميع بأن لها حتى الآن أربعة عشاق أو خمسة

في نفس الوقت - لا تحاول أن تدارى أمورها ، أو تستر
تصرفاتها... تصور أنها في وضوح النهار تنزل من سيارتها أمام ذهبية
معروفة ومعها حقيبة صغيرة تحوى «بيجامتها» الحريرية ... وكل
هذا تحت سمع السائق وبصره ، وتحت نظر من يمر من المعارف
والفضوليين الذين قد يعرفون السيارة وصاحبها ... لا ... شوشو
في الحقيقة منهورة اليوم أكثر من اللازم ، وإنى أرى منها كل
ذلك وأقول في نفسى : «ربنا يستر» ... فكل الناس يعرف سيرها
الآن ... أمرها شاع وراثحتها فاحت ...

— وزوجها ... ألم يشم الرائحة ؟ ...

— الظاهر أنه مزكوم ، كما كثر الأزواج ...

وكان زوج شوشو عندئذ قد تخلص من بائعات الورد ، وسار
يفحص بعينه الجموع ، كأنه يبحث عن أحد ... حتى أشرف
عليهما ... فلما صار على خطوات منهما لمحبهما هو الآخر فأسرع
نحوهما وحيابهما ... وعاتب صديقه صاحب البيت عتابا هادئا
يخالطه المزح ، لما لقيه في بيته من إهمال ، تلك الليلة التي تفجرت
فيها شاعريته ... على أنه انتقم ، كما قال ، فلم يدعه إلى حفلة قرانه
ولا إلى بيت عروسه ... وهنا التفت إلى السيدة قائلا بلهجة
العجولة واللامفة :

— شوشو ... ألم تلجئها هنا؟ ... لقد سألتني أن أسبقها ...
قائلة إنها ستمر ببعض صديقاتها أولاً ... وقد رأيت الذهاب
لبعض أعمال آخرتي ، وجئت حاسباً أني أجدها ... لاشك أن
حديث صديقاتها شغلها عن الوقت ... إنه لمن حسن الحظ أن أقابلك
هنا الليلة ... إنها خير مناسبة أقدم لك فيها شكرى .. كاد يمضي
ضعف عام على زواجي ، الذي توسطت أنت فيه ولو تعلمين كم أنا
سعيدا ... لقد كنت مغفلاً يوم ترددت وتمنعت وتخوفت ...
ألا تذكرين كم جاهدت أنت لاقتناعي؟ ... الحق كان في جانبك ...
شوشو اليوم ملاك ... وإني أضحك من نفسي لرأيت السابقي في
طيشها ... إنك ولا شك قد لاحظت اليوم كم تغيرت وعملت ..
الحمد لله ، مخاوفي كانت في غير محلها ... لقد ظلمت المسكينة . وهي
في الحقيقة زوجة طيبة مخلصه يندر أن يوجد لها مثيل ...

ومضى في هذا الكلام ... وصديقه صاحب البيت ، يصغى
إليه فاغراً فاه ... لا يصدق ما يسمع ... إلى أن تأكد له أن أذنه
لم تخدعه ... فهمس قائلاً :

— إنا لله وإنا إليه راجعون ! ...

ولم يلبث هذا الزوج أن جذبته من ذراعه يد أحد المعارف ...
فاستأذن ومضى معه إلى مائدة عامرة بالأصدقاء وترك صاحبه

والسيدة الدالية الهادية يتبادلان النظرات ، صامتين بلا تعليق .
وأخيراً نطقت السيدة قائلة :
- والله شاطره ا ...

- شاطره ا... وهل هذا مصيرى أنا أيضاً ؟ ... وهل
نصبحك لى ستكون من هذا القبيل ؟ ...
فضحكت وقالت :

- لا ... لا تخف ... ظر وفك أنت مختلفة كل الاختلاف
ومع ذلك ... ما دمت قد رأيت بعينك وسمعت بأذنك فلا يصح
لى أن أغشك ... هل تريد الصراحة ؟ ... إذن اسمع رأيى : هذا
جيك الجديد وهذا همرك ... خذ الأمور كما هى ولا تخدع
نفسك واعلم أن أكثر النساء هنا لكل واحدة منهن على الأقل
عشيقان أو ثلاثة ... وإن تلك التى يقال إنها نظيفة السمعة ولم
يسمع عنها أحد شيئاً ، هى التى لها عشيق واحد ... فإذا أردت
منى أن أغاضك ، أو أن أشجك على مخالطة نفسك ، فهذا أمر
آخر .. ولكنى أنصحك أن تنظر إلى الواقع اليوم بعين الواقع ...
وسكنت لأن الموسيقى الراقصة دوت فى المكان ... وقام من
كل مائدة زوجان .. ودق الطبل ورن النحاس وعوى
«الكسوفون» .. فكان لمزيج أصواتها صدى يشبه صراخ

الحيوان الجوعان . . . ولعبت الأجساد بالأجساد ... واحمرت
العيون ، وندت الشفاه ، واتسعت الأحداق . . . واضطربت
الأفكار في رأس طالب الزواج ، ماذا يصنع ؟ ... وماذا يقول ؟ ...
وعلى ماذا يعول ؟ ...

وظال في اختلاط فكره وحيرة رأيه ما ظلت الرقصة في
اختلاطها ولعبها بأفتدة الراقصين والمشاهدين . . . إلى أن انتهت
الرقصة . . . وصمتت الموسيقى ، وصفق الحاضرون . . . وأقبل
البعض على البعض يتحدثون ... فالتفتت السيدة الهادية إلى زميلها
الخطاب قائلة :

— لم أتلق جوابك ... ماذا قررت ؟ ...

فأطرق لحظة ، ثم رفع رأسه وقال :

— أمرنا إلى الله ... ابجئى لنا إذن عن واحدة شريفة ، عفيفة ،

سمعتها طيبة ، ليس لها غير عشيق واحد !!! ...

الشيخ البليسي

لم أره قط رؤية العين... ولكنني سمعت به من رأوه وعرفوه...
فقد كان لذلك الرجل صيت في الأقاليم منذ أكثر من ثلث قرن...
كان رجلاً فارح الطول، فيما يقال، ضخماً الجرم، ذا هيئة تفرض
على الناس التبجيل والاحترام... وكان شديد العناية بثيابه،
لا يرتدى منها إلا ما غلا في الثمن وزاد في المهابة... كان عظيم
الهامة، أشيب اللحية، طويل المسبحة، كبير العمامة...

* * *

روى لي محدثي عنه قائلاً :

— عرفت الشيخ والبليسي، لأول مرة في دار الباشا المدير...
دخلت عليهم في تلك المنظرة، التي كان يجتمع فيها من حين
إلى حين جملة علماء المديرية وأكابر أعيانها : فأبهرت « الشيخ »
بطالته الجليلة في صدر المجلس، فما شككت في أنه أعظمهم فضلاً
وأرفعهم قدراً... فلما قدمني إليه المدر، لم أنتظر حتى أعي اسمه،
وانكببت، لهيبته، على يده أقبلها... فسحبها مني برفق وأفسح
لي مكاناً إلى جواره، وهو يقول بصوته الوقور :
أستغفر الله يا بني، أستغفر الله... على من أخذت العلم

في الأزهر الشريف ؟! ...

فعلت وجهي حمرة الخجل وقلت :

— لم أدرس العلم... ولكني رجل مزارع من ذوى الأملاك ...

فربت على بكفه قائلاً :

— وأنعم بالزراعة والزراع!... من يزرع خيراً يحصد خيراً ،

ومن يزرع ...

وسعل سعالاً خافتاً غريباً كأنه عواء ... جهد في كتفه بكفه

ومضى يقول متلطفاً :

— كيف اتفق أنى لم أرك هنا من قبل ؟ ...

فقلت وأنا ألقى نظرة على الباشا المدير المتشغل عنا بضيوفه

وهم يتحدثون ، فيما بينهم ، هامسين ، حتى لا يزعجوننا ، فيما اعتقدت ،

بأصواتهم :

— انى قليل المجدىء إلى البندر ... ولا أغادر أرضى وعزيتى

إلا إذا دعيتى إلى ذلك المصالح أو الضرورات ...

فقال الشيخ وهو يعد بأصابعه المرتجفة حبات مسبحة : :

— حسناً فعلت يا بنى ... لقد قالوا فى الأمثال : الأرض النى

لا ترى قدم صاحبها لا تفلح ...

وسعل ذلك السعال الغريب المكتوم وقد وضحت معالمه

المشابهة لعواء الكلاب .. فأخذتني رعدة ... وأحس ذلك مني ...
فقال على أذني هامساً :

— هل أزعجك سعالى ؟ ... لا تخش شيئاً ، .. هذا أمر يأتى
أحياناً ويمر من الكرام ...
فقلت له باطمئنان :

— بل لا تتزعج فضيلتك ... إنما هو برد عارض من برد
هذه الأيام ...

فقال لى بنبرة وقورة هامساً :

— لا ... يا بنى ... هذا ليس ببرد ، .. انى ما تعودت
الكذب ... إنما هو مرض آخر ...
— ليس خطيراً على كل حال ...
— أرجو أن يبرئنى الله منه ، ..

وسعل ... أو على الأصح هوى كالكلب .. وهو يسد فمه
بكمه حتى لا يبلغ الصوت أسماع الحاضرين ... وألقى عليهم نظرات
قلقة مضطربة ... وهمس فى أذني :

— لعل سعالى لم يصل إليهم ... أما أنت فمثل ابنى .. ولعلك
تسكتهم عنى ... إنها بلية ، ابتلانى بها الله ... وهو لا يبلى إلا عباده
الصالحين ... أسأله تعالى أن ينهى هذه الأزمة على خير حتى

أنصرف عن هذا المجلس . . .

فأخذتني به شفقة . . . ورأيتني يلم أطراف عباءته ، ليسرع
بالتنهد ، ولسكن السعال أو العواء أدركه . . . فلبث في مكانه
يحشوه فيه بكفه . . . حتى هدأ قليلاً . . . فقلت له :

— أما من علاج لهذا ؟ . . .

— العلاج بيد الله . . . وأخشى أن يكون قد فات أوامه . . .
كل ما أرجوه ألا يكون دأبي خطراً على الناس . . . كني ما حدث
تلك الخادم المسكين . . .

— ماذا حدث له ؟ . . .

قلت ما مررتا . . . فقال بصوت مرتجف متعجب جاف :

— اشتدت على الأزيمة يوماً . . . وقيل إنني كنت أسعل سعالاً
كعواء ذلك الكلب المسعور ، الذي عضني . . . فلما أراد خادمي
إسعافي ومعاونتي هبته بأسناني وعضضته عضه أدت إلى وفاته . . .
رحمه الله رحمة واسعة . . . ورخصني أنا أيضاً وغفر لي . . .

وقطع سعاله حديثه . . . وجعل يمزق كفه بأسنانه ، حتى لا يخرج
الصوت من فيه واضحاً . . . وجعلت أنا أحارل الترحيح من مكاني
مبتعداً عنه من الخوف . . . ولسكن احترامى له وعطفي عليه وحرصى
على شعوره وخشيتي من لفت الأنظار إليه . . . كل هذا سمعني في

مقعدي ... فتجلدت وقلت له بصوت متهدج :

- إنها ولا شك أزمة خفيفة ستتم ...

ولم أتم... فقد جحظت عيناه... وتغير وجهه.. وأرغى وأزبد.. وكشر عن أنيابه ، وانقلب .. في لحظة - ذلك الشيخ الوقور ، إلى كلب خطر عقور... وترك كفه وفغر فاه بعواء سافر مرعب... ومد يديه نحوي كأنهما مخالب ... وهم بالهجوم على " ... وهنا لم أدر من الفرع إلا وأنا أثب نحو الباب وثبة ، صدمتني بعارضته الخشبية صدمة ، ما برح أثرها باقياً في جبيني... وما كدت أجد نفسي في فناء الدار ... حتى صحت من حلاوة الروح بالخدم والحجاب :

- الحمد لله... هربت بجلدي... لكن المصيبة هي مصيبة الباشا المدير وضيوفه... لقد أكلهم فضيلة الشيخ ونهشهم وانتهى الأمر... وأردت أن أدفع بالحجاب إلى داخل « المنظرة » لينقذوا من يمكن إنقاذه ... وإذ ابى أرى الباشا المدير وضيوفه ، يتوسطهم « الشيخ » الجليل ، خارجين من الباب يتمايلون ، والضحك يكاد يقطعهم تقطيعاً ...

* * *

فلما انكشفت لي الحقيقة وأبدت احتجاجي .. قال لي
المدير باسمياً :

- ألا تعرف الشيخ « البليسي » ونوادره ودعاياته ١٩ ...
هذا هو الشيخ البليسي ... هل تعرفه الآن ؟ ...
فأشرت إلى الصدمة في جهتي وقلت ، بتسما :
— معرفة تركت في أثرأ ! ...
فتقدم نحوي ، والشيخ ، كما يتقدم الممثل بعد أن مسح عن وجهه
طلاء التمثيل وقال :
— الحمد لله على السلامة ا... إن شاء الله قريباً ...
فقاطعته صأحماً :
— مستحيل ... لا يلدغ - بل قل ... لا يعض - مؤمن ...
فبادر هو يكمل العبارة :
— من كلب مرتين .. هذا صحيح ... ولكن من قال لك إنني
سأكون كلباً في المرة القادمة ؟ ...
— إذا قابلتني في المرة القادمة فكن كما شئت وشاءت لك براعتك .

* " *

ولم أفايله بعدها أبداً... إلى أن ماتت وذهبت أيامه ... ولم يعد
لهذه المجالس والتمناذير، ورجود... وانقرض هذا النوع من الناس ...
وانقرض معه نوع من المواهب الطبيعية يتفجر من السليقة
الإفسانية ، كان لازماً لادخال الأانس على مجالس ذلك العهد ...

إن لكل عصر رجال أنسه ... ولما كن عصر « المنادر » كان له
رجال قلبا يجود بمثلهم الزمان ...
لا آسف على شيء أسفى على أنى لم أقابل « الشيخ البلبيسى » مرة
أخرى ... وإن كنت على ثقة من أنه كان سيترك فى مرة أخرى
أترا لا يمضى ...

إبليس ينتصر

اتخذ قوم شجرة ، صاروا يعبدونها ... فسمع بذلك ناسك
هو من بالله ، فحمل فأساً وذهب إلى الشجرة ليقطعها .. فلم يكند
يقترّب منها ، حتى ظهر له « إبليس » حائلاً بينه وبين الشجرة ،
وهو يصيح به :

— مكانك أيها الرجل ! ... لماذا تريد قطعها ؟ ...

— لأنها أفضل الناس ...

— وما شأنك بهم ؟ ... دعهم في ضلالهم ! ...

— كيف أدعهم ... ومن واجبي أن أهديهم ...

— من واجبك أن تترك الناس أحراراً ، يفعلون ما يحبون ...

— إنهم ليسوا أحراراً ... إنهم يصغون إلى وسوسة الشيطان ...

— أو تريد أن يصغوا إلى صوتك أنت ؟ ! ..

— أريد أن يصغوا إلى صوت الله ! ..

— إن أدعك تقطع هذه الشجرة ...

— لا بدلي من أن أقطعها ...

فأمسك إبليس بمخناق الناسك ... وقبض الناسك على قرن

الشيطان ... وتصارعا طويلاً ... إلى أن انجلت المعركة عن انتصار

الناسك ... فقد طرح الشيطان على الأرض وجلس على صدره
وقال له :

— هل رأيت قوتي ا...!

فقال إبليس الممزوم بصوت مخنوق :

— ما كنت أحسبك بهذه القوة... دعنى وافعل ما شئت ...

نخلى الناسك سبيل الشيطان... وكان الجهد الذى بذله فى المعركة

قد نال منه ... فرجع إلى صومعته واستراح ليلته ...

فلما كان اليوم التالى حمل فأسه ، وذهب يريد قطع الشجرة

وإذا إبليس يخرج له من خلفها صائحا :

— أعدت اليوم أيضا لقطعها ؟!

— قلت لا بد لى من أن أقطعها ...

— أرتظنك قادراً على أن تغلبنى اليوم أيضاً ؟ ...

— سأظل أقاتلك حتى أعلى كلمة الحق ا ...

— أرنى إذن قدرتك ا ...

وأمسك بخفافه . . . فأمسك الناسك بقرنه . . . وتقاتلا

وتصارعا ... إلى أن أسفرت الموقدة عن سقوط الشيطان تحت

قدمى الناسك ... فجلس على صدره وقال له :

— ما قولك الآن فى قوتي ا ؟ ...

— حقاً ... إن قوتك لعجيبة ... دعنى وافعل ما تريد ...
لفظها الشيطان بصوته المنهدج المخنوق . . . فأطلق الناسك .
سراحه ... وذهب إلى صومعته واستلقى من التعب والاعياء حتى
مضى الليل وطلع الصبح فجعل الفأس ، وذهب إلى الشجرة فبرز له
إبليس صامحاً فيه :

— أن ترجع عن عزمك أيها الرجل ؟!

— أبداً ... لا بد من قطع دابر هذا الشر ! ...

— أنحسب أنى أتركك تفعل ؟!

— ان نازلتنى فانى سأغلبك ...

فتفكر إبليس لحظة ... ورأى أن النزال والقتال والمصارعة
مع هذا الرجل لن تتبع له النصر عليه ... فليس أقوى من رجل
يقا تل من أجل فكرة أو عقيدة ...

ما من باب يستطيع إبليس أن ينفذ منه إلى حصن هذا الرجل .

غير باب واحد : الحيلة ...

فتناطف الناسك وقال له بلهجة الناصح المشفق :

— أتعرف لماذا أعارضك فى قطع هذه الشجرة ؟! ... إنى .

ما أعارض إلا خشية عليك ورحمة بك ... فإنك بقطعها ستعرض

نفسك لسخط الناس من عبادها ... مالك وهذه المتاعب تجلبها على .

نفسك؟ ... اترك قطعها وأنا أجعل لك في كل يوم دينارين تستعين
بهما على نفقتك ... وتعيش في أمن وطمأنينة وسلامة ١ ...

— دينارين ٢١ ...

— نعم ... في كل يوم ... تجدهما تحت وسادتك ١ ...

فأطرق الناسك ملياً يفكر ثم رفع رأسه وقال لإبليس :

— ومن يضمن لي قيامك بالشرط ٢١ ...

— أعاهدك على ذلك ... وستعرف صدق عهدي ...

— سأجربك ...

— نعم ... جربني ...

— انفقنا ...

* * *

ووضع إبليس يده في يد الناسك ... وتعاهدا ... وانصرف
الناسك إلى صومعته وصار يستيقظ كل صباح ، ويمد يده ويدسها
تحت وسادته فتخرج بدينارين ... حتى انصرم الشهر ... وفي ذات
صباح دس يده تحت الوسادة فخرجت فارغة ... لقد قطع إبليس
عنه فيض الذهب ... فغضب الناسك ... ونهض فأخذ فأسه ...
وذهب إلى قطع الشجرة ... فاعترضه إبليس في الطريق ، وصاح فيه :
— مكانك ١ ... إلى أين ؟ ...

- إلى الشجرة ... أقطعها ا ...
- نهقه الشيطان ساخراً ...
- تقطعها لأنى قطعت عنك الثمن ا ...
- بل لأزيل الغواية وأضئ مشعل الهداية ا ...
- أنت ا؟ ...
- أتهزأ بي أيها اللعين ا؟ ...
- لا تؤاخذنى ا ... منظر ك يثير الضحك ا ...
- أنت الذى يقول هذا ، أيها الكاذب المخاتل ا؟ ...

* * *

- انقض الناسك على إبليس وقبض على قرنه ... وتصارعا لحظة ...
- لمحركة تنجلى عن سقوط الناسك تحت حافر إبليس . . .
- تتصر وجلس على صدر الناسك مزهواً مختالاً يقول له :
- أين قوتك الآن أيها الرجل ا؟ ...
- فخرج من صدر الناسك المقهور صوت كالخشخشة يقول :
- أخبرنى كيف تغلبت أيها الشيطان ا ...
- قال له إبليس :
- سا غضبت لله غلبتنى ، ولما غضبت لنفسك غلبتك . . .
- أتمت لعقيدتك صرعتنى ، ولما قاتلت لمنفعتك صرعتك ا ...

نصيب

في حياة كل رجل لحظة يشعر فيها فجأة بأنه مثل غطاء الطبق الذي لا يجد طبقه ، والويل لمن لا يفتن إلى هذا الشعور إلا متأخراً ، إنه يترك عندئذ كل شيء وينقلب مجنوناً بتلك الفكرة المسيطرة : البحث عن شطره الآخر ... كان بطل هذه القصة من هذا النوع من الرجال ... شاب يجد طموح ... تخرج في الجامعات مهندساً بارعاً ... درس في مصر ثم في الخارج ، وكان في مقدمة أقرانه دائماً .. لا يعرف غير العمل ولا تنظر عيناه غير طريق مستقبله الناجح ... وقد ركض في هذا الطريق بالفعل حتى بلغ درجة « مدير أعمال » ، وكاد يشرف على الخامسة والثلاثين وهو مستغرق هذا الاستغراق في عمله الهندسي . وإذا بغتة تدهمه هذه اللحظة الحاسمة ... وإذا هذا الغطاء الذي كان يجرى على « سنه » ناهباً الأرض كأنه كل شيء ، قد اصطدم بجدار تلك اللحظة العجيبة فوقف ودار حول نفسه دورات ، ثم انبطح على ظهره ورن معدنه رنيناً مكتوماً ، وكأنه يهمس : « ما أنت إلا غطاء الطبق » ... وأفاق المهندس بعدئذ وليس في رأسه غير فكرة واحدة : الزواج ... ودهش أصدقاؤه لرين هذه الكلمة في فمه ، فهم لم يسمعوها

قط منه ، ما الذى حدث ؟ ... وهم الذين طالما فاتحوه من قبل فى هذا الأمر ، فلم يجدوا منه غير الصدوف وعدم المبالاة ... لقد كان كلما ذكرت أمامه « الزوجة » - أو النصف الآخر ، أو « شريكة الحياة » - يبدو عليه كأن الموضوع لا يعنيه ولا يفهم مغزاه ، ويدسم أحياناً ابتسامة المتعجب لغلو الناس فى الوصف وإسرافهم فى التعبير ... لقد كان يحس إحساساً أكيداً أنه كامل بنفسه ... وأنه واحد صحيح ، لا نصف ، ولأنك ، ولا كسر من عدد .. إنه درس الحساب والجبر والرياضيات العليا فنذا يقنعه بأنه أقل من رقم ، وأنه نصف فقط ، وأن هـ:الك نصفاً آخر فى مكان ما ينقصه ليكون الناتج واحداً صحيحاً ؟ ... هذه المسألة الحسابية الأدمية من الذى وضعها ؟ ... ولماذا ؟ ... ولمصلحة من ؟ ... لا ... لا ... إنه لا يظن الطبيعة مشغوفة إلى هذا الحد هى الأخرى بعلم الحساب ؛ لتجعل من الرجال والنساء أرقاماً أو كسوراً من أرقام تجمع بينها وتطرح ... كان هذا كلامه فيما مضى ... أما الآن فهو يقول لأصحابه : « صدقتم ... الحياة حساب ... الحياة مسألة حسابية ... أنا كسر ... أنا نصف ... اجمعونى من فضلكم على النصف الآخر ، ... لسكن بقيت المعضلة الكبرى : كيف العشر على ذلك النصف ؟ ... هل بترك الأمر للصادفة ، أو عليه هو بالسعى ؟ ... هل القدر هو

الذى يخطط على لوح الوجود - بالطباشير - جامعاً الأناصاف بعضها إلى بعض ؟ ... أو أن على الرقم المشطور أن ينقلت هو بنفسه من تحت أصبع القدر وطباشيرته ويسرع زاحفاً على اللوح بحثاً عن بقيته ؟ ... ولبت المهندس أياماً لا يلقى على معارفه المتزوجين غير هذا السؤال الذى لا يتغير : « كيف عرفت زوجتك ؟ ... » ، وكانت الإجابات مختلفة ، فمنهم من يقول : « رأيتها فى سهرة عند بعض الأقارب أو الأصدقاء » ، ومنهم من يجيب : « قابلتها فى سوق خيرية فأعجبتنى ، فسألت عنها » ، ومنهم من يذكر : « كانت على البلاج » ، فتبعها وعرفت عنوانها ، « ومنهم - وهم الندرة فى هذا الزمان بمن يؤمنون بالنصيب ، أو اليانصيب ، ولا يرضون بطرائق الاختيار الحديثة - من همس له : « والله البركة فى الخاطبة أم شلبي » .. ومار المهندس فى هذه الأساليب ، جديدها وقديمها ، ولكنه لم ينسكرك ولم يرفض ولم يعترض ... لقد قبلها كلها ... كل سبيل يودى إلى شطره الآخر ان يتردد فى سلوكه ... لقد فتح عينيه واسعتين ، وذهب بهما يحوس خلال السهرات والطرفات والشواطىء والأسواق ... لكن ... وا أسفاه : أما هذه فقصيرة وأما تلك فطويلة ... والأولى أنفها لا يروقه والثانية فما لا يعجبه ... ثم إذا هو أغضى عن المظهر فن يدريه بالخبر ؟ ... لقد جند كل

أصدقائه وزوجاتهم للبحث معه ... ذلك أنه لم يكن له أقارب في القاهرة ... فإن أهله في الريف ... وليسوا ممن يحسنون فهم ما يريد ... ولم تكن صلته بهم تبيح لهم التدخل في شئونه ، فقد كانوا أقارب من درجة بعيدة ... لأن والديه ماتا بعد تخرجه في الجامعة بقليل ... لذلك كان اعتماده على معارفه ... وأغلبهم كان يرتاب في أنه يأخذ الأمر اليوم على سبيل الجد ... فكانت معارفهم له ضئيلة فائزة في أكثر الأحيان ، ثم زادهم فتوراً وانقراضاً من حوله مارأوه من زرده في الاختيار وعدم بته في الأمر ، وبذه كل فتاة عرضت عليه بحجج مختلفة ... على أنه لم يكن في الحقيقة متمتناً ولا متعللاً ، إنما هو ذهنه كان قد صور له امرأة بملاحظها وخصالها ، وأوهمه أن تلك هي نصفه الذي لا يرضى به بديلاً ... فهو لا يريد أن يفتق إلا طبقاً للنموذج الموضوع في رأسه ... وطال بحثه عبثاً وذهب جريبه سدى ... فقعد ذات مساء يائساً ونظر إلى السماء قائلاً : « تعبت أيها القدر ! ... الكلمة لك أنت الآن ... سأغض عيني وأمد يدي ، فضع فيها من تشاء ... » وما جاء الصباح حتى أرسل في طلب الخاطبة أم شلبي ، نعم ... ولم لا ؟ ... مادام قد نزل عن نماذجه وصوره ، وقنع بالنصيب المكتوب في اللوح ، وأسلم قياده للقدر يخط بيده ما يريد ... فماذا يصنع غير ذلك ؟ ...

أليست أم شلبي من عملاء القدر أو من أدوانه ؟ ... من بدرى ؟ ...
لعلمها هي الطباشيرة في أصبعه ... إذ لا يمكن للقدر أن تكون له
وسيلة أخرى يفرض بها في مثل هذا الأمر إرادته السماوية ...
وأقبلت تلك الطباشيرة، فإذا هي امرأة ضخمة بدينة سمينة جسيمة
كأنها فيل ... وهل ينتظر أن يلا يد القدر أو يليق بأصبعه حجم
أقل من هذا الحجم؟! .. وعرض المهندس الخاطب طلبته، ووصف
لها على قدر الإمكان بغيته.. ففضت المرأة واختفت أيا ما ثم عادت
ومعها سجل حافل بأسماء الأسر، ومندبل كبير يضم عدداً من الصور
الفوتوغرافية لفتيات على كل طراز .. فوقع في حيرة جديدة :
كيف يتخير وأيها يختار؟ ... وحدثته الخاطبة فيما حدثت عن فتاة
تصلح له .. ولكن - يا خسارة - ا ... تقدم لإيها خاطب طيب
ليس من السهل رفضه ... تصلح لي؟ ... وأين صورتها؟ ... وخيل
إلى المهندس في تلك اللحظة أن هذه الفتاة هي امرأته ونصفه وحلمه،
وأن عليه أن يختطفها من مناسه اختطافا ... وأين صورتها؟ ...
فقالت الخاطبة أن أهلها رفضوا كل الرفض أن يعطوها أية صورة
لها ... ولسكنها جميلة وأى جمال فتشبث المهندس بأذيال الخاطبة
وصاح : « لا بد من الصورة » .. ففكرت ملياً ثم نظرت إليه نظرة
دماء، فثلها لا يعجز عن الحيلة ... لقد لحت في بهر الدار صورة

الفتاة معلقة على الحائط ... فهمى ستذهب إليهم لتخبرهم بأمره ... ثم تغافلهم وتخطف الصورة المعلقة وتأتي بها إليه ... نهضت من فورها وذهبت وتركت المهندس فريسة ذلك الإحساس ... إنها هي ... إنها هي ... لقد وجدها أخيراً ما سر هذا الشعور ؟ ... أتراه الغموض الذي يشملها ؟ .. إنه لم يرها وينازعه فيها منذ الآن منازع ... كيف هي ؟ ... وهل يفوز بها ؟ ... إنه واثق أن صورتها هي صورة المرأة التي يبحث عنها ... ولبت يفكر في ذلك طول حياته ... وتقدم الليل وأراد أن يأوى إلى فراشه ... ولكن النوم استعصى عليه فقام وأضاء المصباح الكهربي الصغير فوق رأسه ، وتناول كتاباً يهده من أعصابه الثائرة ... وإذا نظره يقع على صفحة تحتوي قصة قديمة لرجل من بلاد الهند كان يبحث هو أيضاً عن زوجة أحلامه ، فكان بحثاً مضاً على غير طائل ، فقال له قائل : « لا تياس ... ابحث عن الزوجة ولو في الصين ، فلم يبطل الرجل ... وركب في الحال البحر إلى بلاد الصين فكسر المركب به وبمن معه في وسط البحر ... فتجا مع بعض القوم على خشبة من خشب المركب ، ووقعوا في مكان لا يدري أى مكان هو ، فأقاموا فيه أياماً لا يجدون قوتاً حتى أشرفوا على الموت ، فقال بعضهم لبعض : « تعالوا نعاهد الله على أنفسنا أن ندع له شيئاً فلعله يرحمنا ويخلصنا

من هذه الشدة ، فقال بعضهم : « أصوم في كل عام شهرين » ، وقال البعض : « أصلي في كل ساعة ركعتين » ، وهكذا ... إلى أن قال كل منهم شيئاً والرجل طالب الزوجة ساكت فقالوا له : « قل شيئاً » ، ١ ... فخار ولم يجيء على لسانه إلا قوله : « لا آكل اللحم فيل أبدأ ، ١ ... فصاحوا به : « الهزل في مثل هذا الحال ، ١٤ ... فأجابهم : « والله ما عمدت الهزل ، ولكنني منذ بدأت وأنا أعرض على نفسي شيئاً أدعه لله فلا يخطر على بالي غير الذي لفظت به » ... ومرت اللحظات بهم ، فقال أحدهم : « لم لانطوف في هذه الأرض ، متفرقين بحثاً عن القوت ، فن وجد شيئاً أنذر به الباقين ، والموعود هذه الشجرة » ؟ ... فتفرقوا في الطرق ، وإذا أحدهم يرجع بعد قليل بولد فيل صغير ، فلوح بعضهم لبعض فاجتمعوا ... وأخذوا الفيل الصغير واحتالوا فيه حتى شووه وقعدوا يأكلون ، وقالوا للباحث عن الزوجة : « تقدم واكل معنا » ، فقال : « أنسيتم أني منذ ساعة ركته لله ؟ ... إني لن أرجع في شيء تركته لله أبدأ ... ولو كان في ذلك موتي جوعاً ، وأكل أصحابه بدونه ، وأقبل الليل ، فتفرقوا إلى مواضعهم التي كانوا فيها يبيتون ... وأوى هو إلى أصل شجرة كان يبيت عندها ، فلم يكن إلا لحظة ، وإذا بفيل عظيم قد أقبل وهو ينعر والحلأ كله يندك بنعيره ، وهو يطلب

اقوم... فقال بعضهم : « قد حضر الأجل » ، فاستسلموا وتشهدوا
وأخذوا في الاستغفار والتسبيح ، وطرحوا أنفسهم على وجوههم ،
فجعل الفييل يقصد واحداً واحداً ، فيشمه من أول جسده إلى آخره
فإذا لم يبق فيه موضع إلا شمه ، شال إحدى قوائمها فوضعها عليه
ففسخه ثم تركه كالعجين ، وقصد آخر ففعل به مثل ما فعل
بالأول... إلى أن لم يبق من القوم غير الباحث عن الزوجة ، وهو
جالس منتصب يشاهد ما يجري ويستغفر ويسبح ويقول : قاتل
الله ذلك الذي نصحنى هذه النصيحة الشوم ، وأخرجني من بلادي
في طلب... » ولم يتم كلامه... فإن الفييل لم يممه وقصده للفور...
فارتدى الرجل على ظهره مستقبلاً الموت ، وجعل الفييل يشمه كما
شم أصحابه من قبل ، ثم أعاد شمه مرتين أو أكثر ، ولم يكن فعل
ذلك بأحد من الآخرين ، وروح الرجل في خلال ذلك تكاد
تخرج فزعاً... ثم لف خرطومه عليه فشاله في الهواء ، فظنه الرجل
يريد قتله بقتلة أخرى ، فجهر بالاستغفار ولمكن الفييل رنقه
بخرطوميه وأجلسه فوق ظهره ، وانطلق به يهرول نارة ، وينهذى
أخرى... إلى أن طلع الفجر واشتد ضوءه ، فإذا الفييل قد أنزله
عن ظهره ، وتركه على الأرض أمام باب قصر نفخ... ورجع إلى
الطريق التي جاء منها... ولبث الرجل في موضعه لا يعقل ولا يعي

من الفزع والجزع ... ولم يشب إلى رشده إلا وهو داخل القصر ...
فانتبه إلى نفسه ... فإذا هو في فراش وثير وثياب جديدة وإلى
جواره فتاة كالبدور هي ابنة صاحب الدار ... طفقت تعنى به وهو
ينظر إليها ويهمس قائلاً : « أمن الموت إلى الحياة ... وأى حياة ! ... »
لأنها هي ... هي ! ... ، نعم ... كانت هي ضالته التي تجشم من أجلها
السفر والبحر والخطر ... فقد تزوجها بعد ذلك وكانت نعم الزوجة
والخدين والشريك ...

وانتهى المهندس من مطالعة هذه القصة القديمة ، وهو يقول
لنفسه : أم شلبي ... هذا القبل الأدمى ... من يدري ... لعلمها هي
الأخرى تحملني غداً إلى تلك الأسرة التي أجد في فئاتها ضالتي ...
وطالع الصبح ... وانتصف النهار ... وجاءت الخاطبة تحمل في
ملاحتها ، صورة في إطار ، أمسك بها المهندس متلماً ونفوس فيها
ملياً ... ثم طفق يقول للخاطب لنفسه : « نعم ... لا بأس ... حقيقة
إني أردت امرأتى هكذا ! ... » وسحبت أم شلبي الصورة من يده
برفق ، قائلة له إنها ستقع في الحرج إذا تفقدوا الصورة قبل ردها ...
وأن عليها الآن أن تعود بها فوراً لتضعها في مكانها ... وأن ما يجب
عليه عمله منذ الساعة وقد راقته الفتاة أن يعرضي قداً إلى أهلها
فيعرض طلبه ، قبل أن يرتبطوا بالخاطب الآخر ، وإذا شاء فإنها

تدبر له موعد المقابلة مع أبيها في أقرب وقت... فقال لها : « نعم ...
أسرعى ... الخير فيما اختاره الله ... »

لم يمض يوم حتى عادت أم شلبي نلهث وتدعوها إلى زيارة والد
العروس ، عصر ذلك اليوم ، وتوصيه أن يكون حريصاً على
الذهاب في الموعد المحدد بغير إبطاء ولا تأخير ، فإن أهل الفتاة
رفضوا بادئ الأمر الكلام في شأن أى خاطب جديد فهم قد رضوا
عن الخاطب الأول ، ولم يروا به راءاً لترك هذا الباب مفتوحاً بعد
ذلك ، ولكن الخاطبة بذلت أعظم الجهد في إقناعهم بمقابلة هذا
المهندس الكفاء ، فمن يعلم أين النصيب؟ ... وما ضرهم أن يأذنوا له
في زيارة قصيرة ، لقد احتمالت وصنعت ما استطاعت لتفتح له
ذلك الطريق المغلق ، فلم يبق إلا أن يصنع هو ما يستطيع ليقنع
والد البنت ، وهو شيخ وقور متقاعد من رجال الجيش ، دقيق في
نظامه ، صارم في أحكامه ، فقال المهندس للخاطبة : « لا تخافي ...
في الساعة الخامسة بالضبط أكون هناك ... » وقد بر بوعدة ،
فما أزلت الرابعة والنصف حتى كان قد تهيأ وتجهز وارتدى خير
ثيابه ، ووقف أمام المرأة يضع منديله الحريري في جيب الصدر ،
وينظر إليه وقد تدلى وتهدل ، فرأى أن يخفى بعضه ولا يبرز غير
طرفه ، اعتدالا في إدعاء الأناقة ، واقتصاداً في إبداء الخيلاء

ورضى عن مظهره ... فنزل إلى الطريق قاصداً بيت العروس ،
وسار في الشارع وكل شيء فيه مبتهج فرح ، وقد غمر الاطمئنان
قلبه فبدد حيرته ، لقد انتقى له القدر شريكته ، فلم يبق إلا أن
يتقبلها منه شاكرأ ، آه للإنسان ! ما أشد عجزه !... هنالك
مسائل لا يرتاح إلى حلها إلا إذا سقط عليه المفتاح من السماء !...
وهنالك مواقف يواجه فيها الانسان مفرق طرق ، فلا يسعفه
إلا دفعة في ظهره من يد القدر نحو إحداها ... كانت مثل هذه
الخواطر تجول في ذهن المهندس وهو يواجه مفرق طرق « ميدان
سليما باشا ، وإذا هو فجأة يحس دفعة في ظهره شديدة قاصمة قد
طرحته على الأرض ، وإذا شيء كالعجلات يمر فوق جسمه ...
وكان هذا يبلغ وعيه لكل ما حدث ...

ليس يدري على التحقيق كم من الزمن مضى عليه وهو في إغمائه ،
لكنه عندما تأنبه وجد نفسه على فراش وثير في سرير مستشفى ،
وجسمه كله مغلف بالأربطة الصحية وقد سمع من يهمس حوله
قائلاً : « لا تتحرك ، فحول بصره جهة الصوت ، فرأى طبيباً
ومرضاً وممرضة في ثيابهم البيضاء ، وقد علم منهم أنه قد أجريت له
عملية « جراحية ، وأنه قد كسر له ضلع ، وأنه في هذا المستشفى
منذ أيام ، وأن حالته كانت خطيرة بادية الأمر ، ولكن الخطر

زال عنه الآن ... وأنه سائر في طريق الشفاء ... وأراد المريض أن يتكلم وأن يستفسر فمنعه الطبيب من بذل أى حركة أو جهد ... ولم يسمح له إلا بالرد المقتضب على أسئلة رجال الضبط الذين جاءوا لسماع أقواله في الحادث ، وقد أجابهم بأنه لم ير شيئاً ... لا السيارة التي صدمته ولا لونها ولا سائقها ... نغموا محض تحقيقهم وانصرفوا عنه ، ونأمل هو حاله لحظة واكتفى بالهمس في أعماق نفسه :

ضلع مكسور ! ... هذا كل ما وصلت إليه ... أنا الآن كسر بحق ... دون أن أظفر مع ذلك بالنى تكلمنى ! ... ثم ذكر آخر يوم كان فيه صحيحاً ... وكان سائراً إلى بيت العروس ... ترى ماذا تم في هذا الأمر ؟ ... أترى الفتاة ما برحت من فصيده ؟ ... أم أن الخاطب الأول قد سبقه إليها ، بينما هو طريق ، كالجواد الذى سقط في ميدان السباق ؟ ... كيف السبيل إلى معرفة النتيجة ؟ ... لو استطاع على الأقل أن يبعث في طلب « أم شلي » ليعلم منها .. ولكن ما الحيلة في هذا الطبيب الذى بمنعه من الكلام والحركة ؟ ... فليصبر يوماً آخر أو يومين ... يا لسوء حظها إذا كان قد فقدما بسبب هذا الحادث ! ... الويل للجاني الذى صدمه عند ذلك ... إنه لن يعتذر له أبداً ... لا كسر ضلعه ، بل تلك الطامة

الأخرى ، ضياع نصفه الآخر بعد أن عثر عليه ...
وحانت منه التفاتة إلى ما حرله ، فوجد ما أدهشه : باقات من
الورد والأزهار الغالية في الآيات ، وقارورات فاخرات من ماء
« الكاونيا » ، وكتب مجلدة مذهبة لقتل الوقت ، وصناديق ثمينة
مفعمة بالحلوى وملوثة بالسجائر ... وكل ما يمكن أن يهدى إلى
مريض معزز مدلل ... عجباً ! ... من هذا الذي يتم بترفه كل هذا
الاهتمام ، ويعنى بشخصه كل هذه العناية ؟ ... وسأل طبيبه بإيماءة
من عينه عن أحضر كل هذه الهدايا ... فلم يزد الطائيب على أن
قال بسرعة وبلمحة من يقول شيئاً معروفاً للجميع :

— الست ...

وانتفت الطائيب إلى مرءوسيه يصدر إليهم الأوامر الأخيرة
قبل انصرافه ... وغادر الجميع الحجرة من فورهم ، تاركين المريض
مستغرقاً في الدهشة : « الست » ... ومن هي هذه « الست » ؟ ...
وعادت المريضة وفي يدها أنبوبة زجاجية وحقنة ، ملأتهما
وخزت المريض بإبرتها ... فانتظر حتى فرغت من عملها ، فسألها
أن تحدثه بليلاً عن تلك « الست » ... وكانت المريضة ثرثارة ...
فندفقت تصفها بأنها أجمل وأكرم سيدها وأنها ...
وظفقت تخبر المهندس المريض بطائفة من التفاصيل لم تزد.

إلا عجباً واستغراباً، فهذه «الست» الحسنة أتى كل يوم لتسأل عن صحته ... وهى فى كل مرة أتى بالأزهار الجميلة، وتضع النقود فى أيدى مرضيه بسخاء وترجوهم أن يخصوه بكل عنايتهم، وأنها كانت فى ساعات الخطر الأولى تسأل عن تطورات حالته فى جوف الليل بالتليفون بعدة مرات .. وأنها حضرت «العملية الجراحية» منتظرة فى حجرة مجاورة كى تطهئن على عواقبها ... وأنها أصرت على استدعاء «كونسولتو» من الأطباء قبل إجرائها لتزداد اطمئناناً .. وأنها دفعت نفقات كل ذلك من جيبها بدون تردد ... بل الأعبى أن وجوده فى هذا المستشفى فى هذه الحجرة من الدرجة الأولى الممتازة بكل ما يلزم له من علاج وغذاء ورفاهية وترف هى التى تتولى نفقاته، وأن المسال يسيل من بين أصابعها كالماء فى هذا المستشفى من أجله ... ولا هم لها ولا تفكير إلا فى شىء واحد : «إنقاذ حياته بأى ثمن»، ... تلك هى كلمتها التى ترددها كل يوم وكلما جاءت ... ولكل من تقابل من أطباء وممرضين ... وختمت المرصنة حديثها قائلة ببساطة :

— طبعاً ... زوجتك ... طبيعى أنها تهتم بك وتضحى بكل شىء ... ان شاء الله أبشرها بالأخبار السارة عن قريب ... وخرجت من الحجرة مسرعة، وتركته يقول كالخجول :

- زوجتي ؟! ...

وجعل يعالج حل هذا اللغز ، إلى أن اهتدى إلى رأى
شبه معقول :

لعل هذه « الست » التي يحسبونها هنا زوجته ليست في حقيقة
الأمر سوى تلك الفتاة « العروس » التي كان ذاهباً لخطبتها ...
ولعلمها علمت بالحادث ، وأثر في نفسها ما وقع له وهو في طريقه
إليها ... فحملها ذلك التأثير الشديد لهذا الاخلاص كله على
العناية به ... إذا كان ذلك حقاً فهي إذن الشريكة المنشودة ...
نعم ... ما أكرم نفسها! ... وما أسعده بمثلها! ... ثم لماذا تتحمل
هي نفقات علاجه؟! ... أتراها اعتبرت نفسها زوجته منذ الآن ،
لمجرد أنه كان ذاهباً يطلب يدها؟! ... إذا كان هذا ما وقع في نفسها ،
فإنه ليقرها عليه ... فهو أيضاً يعدها زوجته من الآن ... بل منذ
اللحظة التي سقط فيها تحت السيارة من أجلها ... يالها من زوجة
عزيرة .. إن رسمها في رأسه الساعة مشوش مختلط ... ولسكنه
ذبح ذلك يذكر بعض ملاحظها شاهدها في الصورة ذات الإطار ...
لابد له على أي حال أن يراها سريعاً ، ليشكرها على الأول ...
وإنتظار حتى جاءت الممرضة فقال لها :

- أريد أن أرى ... زوجتي ...

فأجابته الممرضة بأنها لم تحضر بعد ، ووعدته بأن تدخلها عليه
توأم عند حضورها .. ولبت المريض يعد في انتظارها الدقائق ثم
الساعات ، ثم جاءه الليل ، ثم مر يوم وثلاثة وأربعة ... دون أن
يسمع من الممرضة سوى ألقاظ الدهشة والاستغراب ... فهمى
أيضاً تعجب لاخفتفاء هذه السيدة الآن ... بعد أن كانت نجمة
المستشفى في اليوم مرتين... ووقع المهندس لافي الهم والنم وحدهما
بل في الحيرة أيضاً والخرج ... بماذ يعمل للممرضة وللآخرين هذا
التصرف العجيب من زوجته المزعومة ؟ .. فأثر الصمت أمامهم
والاقلاع عن ذكرها... ولكنه ظل الأيام يحاول عبثاً أن يكشف
لفسه حقيقة هذا السر ... إلى أن بدرت ذات يوم من الطبيب
بادرة أنارت قليلا هذا الأمر ... فقد قال له وهو يفحص ضلعه
المكسور :

— حالتك الآن على ما يرام ... تستطيع الآن أن تضطجع
على وسادة خلف ظهرك ، وأن تتكلم كما تشاء ... وأن تقرأ هذه
الكتب والصحف والمجلات التي ترسلها لك الست ...
فصاح المريض كالغريق الذي وجد خشبة :
— الست ؟ ... أين الست ؟ ...
فقال الطبيب باسمياً :

— إنها الآن مطمئنة غاية الاطمئنان بعد أن أكدت لها منذ أسبوع زوال كل خطر ...

— ولكنني ... أعني ... هل حضرت ؟ ...

— لا ... لقد قالت لي في آخر مرة إنها لم تعد ترى ضرورة للحضور ، ما دام الخطر قد زال ... وإنها تسكتني الآن بالسؤال عن الحالة بالتليفون مرة كل يومين أو ثلاثة ...

— هل أستطيع أن أكلف أحداً بطلبها بالتليفون ؟ ...

— بالتأكيد ... اعط رقم التليفون للممرضة وهي تقوم بذلك في الحال إذا شئت ...

— رقم تليفون البيت ، معروف هنا طبعاً ...

— لا أظن ... إنها هي التي تطلبنا دائماً ... ومع ذلك

ألا تعرف أنت الرقم ؟ ...

— آه ... طبعاً .. طبعاً ...

وضحك ضحكة يخفي بها ورطته ... وانصرف الطبيب ، وتركه يتخبط في ظلام أكثف مما كان فيه ... من هذه السيدة التي تعطف عليه كل هذا للعطف وهو في الخطر ، فإذا انقشعت غمته وتحسنت حالته ، انصرفت عنه في غير اكتراث كأنها لا تعرفه. ١٢ ... ثم كيف يتصل بها الآن والمسالك دونها موصدة ؟ ... ونادى الممرضة

عورجا منها أن تبحث في إدارة المستشفى وفي كل مكان عن عنوان « الست » أو رقم تليفونها ... موهما إياها أن زوجته هذه تعتمد إخفاء مكانها عنه وتتكلف هذا التصرف معه ، لأسباب خاصة ، لكن المريضة لم تعثر لهذه السيدة على عنوان معروف ولا على رقم تليفون ... وكل ما يعلونه عنها في المستشفى أنها هي التي تحضر وهي التي تستفسر دون أن تترك خلفها أثراً ... ولم يجد المريض آخر الأمر غير وسيلة واحدة ... ما كاد يهتدي إليها حتى صاح فرحاً كمن وجد الفرج ... والتفت إلى المريضة قائلاً :

— اسمي ا... أرجوك... إذا سألت عني « الست » بالتليفون في المرة القادمة ، فأخبريها أنه قد حدثت لي نكسة ، وأني لن أعيش أكثر من ساعتين ا...

فترددت المريضة ... فأقنعها بورقة مالية دسها في كفها ... فقبلت المجازفة بهذه الأكذوبة لوقت محدود ... ومضى يومان ... وإذا المريضة تدخل على المهندس مهرولة لاهثة وهي تقول :

— تكلمت ...

— صحيح؟ ... تكلمت؟ ...

قالها وقد كاد قلبه يثب من جوفه ... فأكدت له المريضة أن « الست » تكلمت الساعة بالتليفون لتستفسر ، فأجابها بالرد المتفق

عليه ، فذهرت وألقت بالساعة ، وهي قادمة بعد دقيقتين ... فلم يدر المريض ما يصنع من الفرح ... ومد يده على غير وعى منه يلتمس زجاجة عطر الكلوونيا ليتطيب... وهو يوصى الممرضة أن تدخلها عليه للفور ، وأن لا تنسى أنه يمضض... وخرجت الممرضة تستقبل القادمة... ولم يمض قليل حتى سمع المريض صوت المرأتين يقترب ... فأغلق عينيه نصف إغلاق ، واستلقى بلا حراك ومثل دور من يموت .. ودخلت زوجته ، المزعومة وتسمرت بالعتبة تنظر إليه شاحبة الوجه ... فكاد يمثل الموت يموت حقاً ... من هذه المرأة ؟ ... إنها ليست صاحبة الصورة التي في الإطار ... هو الذى وطن النفس وأعد الذهن لرؤية امرأة يعرفها ... أو يعرف رسمها على الأقل ؟ .. ها هو ذا أمام امرأة جديدة لم يرها قط في حياته ، ولا يدرى عنها شيئاً ... وأنهار كل ما كان قد بناه في لحظة ... فليست هذه المرأة بالعروس التي كان ذاهباً لخطبتها ... وليست هذه العناية وهذا الاهتمام وليد تلك الأسباب التي كان قد رتبها واستنبطها واستتجها ... هذه امرأة غريبة عليه وعلى ذهنه وفكره ... لم يرها من غير شك في الماضى ، ولم يصادفها في حقيقة أو خيال ... فمن تكون ؟ ... ومن أين طلعت له ؟ ... وما سر عنايتها به ولمقتها عليه .. وقلقها في ساعات أزماته . . .

وتكلفتها جميع نفقاته ؟ ... هذا هو اللغز الذى فاق جميع ماعداه ...
ولكن هذه المرأة التى لم يعرفها ولم يرها ... ما أجملها ! ... إنه
تخييل فعلا يوهأ ما ، نوعا من الجمال تمناه فى امرأته ... ولكنه لم
يستطع تخييل حسن كهذا ... إنه الكثير عليه هذا الجمال ثم ما أروع
وجهاها فى هذا الشحوب ... لقد شحبت وجهها هكذا حزناً عليه ...
أهو فى يقظة حقاً ؟ ... ثم ما هذا الذى يرى ... يا للعجب ...
إنها دمعة فضية تترقق فى عينيها الواسعتين كأنها قطرة ندى ...
ولم تتحمل الحسنام ألمها - فيما يبدو - أكثر من ذلك ... فاندفعت
خارجة من الحجر ، وهى تمسح دمعتهما بأناملها القرمزية الأصداف ،
والممرضة فى أثرها ... ولم يبد المريض حركة ولم يلفظ همسة فقد
أذهله ما رأى عن كل شيء ... ولم يشب إلى رشده ، وتستيقظ له
إرادة ، إلا بعد أن عادت إليه الممرضة وحدها راجية ملحة فى
الرجاء أن يكف عن هذه الأكذوبة ، وأن يسمح لها أن تخبر
الحسنام بالحقيقة ، قبل أن تتخرج الأمور ، وبلغ إدارة المستشفى
الأمر ، فتعرض هى للبوأخذة ، ذلك أن « الست » تصر على
استشارة الأطباء ، وبذل كل عطاء لإنقاذه من الموت ، ولم تنتظر
الممرضة رأيه أو جوابه ... وأقبلت عليه نعيته على الاستواء
قليلا ... وتضع الوسادة خلف ظهره ، وجذبت إحدى المجلات

المصورة ودفعت بها إليه ، وأعلنته أنها ذاهبة تخبر « الست »
بالحقيقة ، وتعود بها لتراه وهو في حالته الحقيقية ... وخرجت
عنه وهو مضطجع كالطفل الذي لا إرادة له ولا عزم ... المتقبل
كل ما يجرى له ويفرض عليه ... وأخذ يعيث بصفحات المجلة
المصورة بعين زائفة وفكر شارد ... وإذا بصره على الرغم منه
يقع على صورة يعرفها ... عجباً ... إنها صورة للعروس التي رأى
رسمها في الإطار ... نعم ... هي بعينها في ثياب العرس البيضاء وإلى
جانبا شاب في ثياب السمرة « الفراك » وتحت الصورة عبارة « قران
بهج » ... لقد زفت إذن إلى خاطبها الأول ... حسناً فعلت ، إنه
لا يأسف الآن عليها كثيراً ... وأرسل بصره إلى الباب نافذ
الصبر ... معلق الأنفاس ... وإذا المرضة تدخل وهي تجذب
الحسنة جذباً رقيقاً إلى داخل الحجر ، وقدمت إليها مقعداً بجوار
السري ، وانصرفت في الحال ... ومرّ كل ذلك مرّاً خاطفاً ،
فلم يشعر المهندس بالحسنة إلا وهما منفردان وجها لوجه ، ولم يكن
من اليسير أن يجد أحدهما الكلام الذي يبدأ به ... فوقعا أول
الأمر في صمت عميق محرج ... قطعتة الجميلة قائلة ، وكأنما
تنفّس الصعداء :

— أف ... الحمد لله على أنك بخير ... لقد كاد يغمى عليّ

الساعة عندما حسبتك تموت ا ...

فررنا إليها وإلى فيها وهي تنطق هذه الكلمات ، وكأنه
لا يصدق أن هذا القول موجه إليه ... ثم تمالك قليلا وقال لها :
- حياتي شيء مهم عندك ؟ ...
- جداً ...

- لا يوجد غير تعليل واحد لكل هذا ، إنى مت حقيقة
وانتقلت إلى جنة الخلد ، وما أنت إلا حورية مكلفة بملاطفتي ...
ولكن .. أين الشجر والثر والكوثر ... ولماذا هذا السرير
والمرضة والمستشفى !! ...

- لا ... أنت من حسن الحظ حتى ... لأنك لو كنت مت
ودخلت جنة الخلد ، كنت أنا دخلت السجن ...
- السجن ؟ ... وما المناسبة ؟ ...

- آن الأوان أن أعترف لك يا سيدى بجزيمتى ... أنا التى
صدمتك بسيارتى ... وإنى بالطبع متأسفة جداً ... واسكنه القدر ...
أقوى منا ومن إرادتنا وتدبيرنا ... كنت مسرعة وهذا خطأ منى
ولاشك ... ولكنى كنت مدفوعة برغبتى فى شراء ثوب حريرى
ورأيت فى الصباح ، وخفت أن تسبقنى إلى شرائه أخرى ... وعندما
حضرت العجلات على جسدك ... لم أفق ومضيت فى السير بعين

السرعة ... لا عن قسوة منى وانقص فى المروءة ... بل عن خوف شديد استحوذ على ... لقد هربت من جسدك الملقى على الأرض كمن يهرب من شبح ... وعدت توأ إلى بيتنا غائبة العقل .. ورأتنى والدتى فهالها اضطرابى ، وقصصت عليها ما حدث ، فنصحتنى أن أخبر والدى بكل شىء ... وهو من رجال القضاء ... فلما سمع والدى القصة حار هو الآخر فيما ينبغى عمله .. فإن التبليغ عن هذا الحادث معناه التعرض للحكم إذا مات المصاب ، كما قال لى ، وإذا لم نبلغ فإننا نتحمل تقريع الضمير طول حياتنا ، وإن كرامته كقصاص يمنع من أن ينصح أحداً ولو كان ابنته بالهرب من العدالة .. وإن خنانه كآب يمنع كذلك من أن يدفع بابنته الوحيدة إلى السجن ... وانتهى به التفكير إلى أن ترك لى حرية التصرف ... بعد أن أفهمنى كل النتائج المحتملة لهذا الفعل ... وجعل يعنفنى على جنونى فى سرعة القيادة ... ونصحتنى أخيراً أن أتبع حال المصاب على الأقل وأن أعمل على علاجه وانقاذه ... فإنه إذا شئى ان يقع على من العقاب أكثر من غرامة مائة ولذا بادرت أسأل أقسام البوليس عن المصاب فى حادث السيارة عصر ذلك اليوم فى ميدان ساميان باشا ... إلى أن اهتديت إليك ...

وأصغى المهندس إلى حديثها ، وكأنه يهبط رويداً رويداً من

السحاب حتى لاصق التراب ... وما فرغت روايتها ... حتى نظر إليها قائلاً :

- يا لك من مجرمة أئيمة ! ... كسرت ضلعي ، وأضعت خطيبي ، وبددت أحلامي ! ... وكل هذا لن تعاقبي عليه بأكثر من غرامة مالية ! ...

- لأنك شفيت والحمد لله ! ...

- أنا شفيت ! ... وما قيمة شفائي ؟ ... إن موتى الآن خير من حياتي ... أكل هذا العطف الذي نلته منك ... وهذه الدمعة التي سقطت من عينيك ، وهذا الشحوب الذي بدا عليك لم يكن من أجلى ولا خوفاً عليّ ، بل خرفاً على نفسك من الحبس ! ؟ ... اسمعي أيتها الآنسة ... أو الست ... أو الزوجة المزعومة ... - الزوجة ؟ ...

- طبعاً ... وماذا تريد أن يكون ظنهم هنا بسيدة مثلك تعنى هذه العناية برجل مثلي ؟ ... لقد خطر في بالهم بالضرورة أنك زوجتي ولم يخطر في بالهم أنك قاتلتي ! ...

- لا تقل إنني قاتلتك ... فما أنت ذا الآن في صحة جيدة ...

- كم كنت أتمنى أن أموت لتدخل أنت الحبس ...

- إلى هذا الحد تبغضني ؟ ...

- هل أبلغت الحكومة أنك أنت الجانية؟ ...
- لم أبلغ بعد ... لقد رأيت أن أنتظر حتى تشفى ...
- وإذا كنت مت؟ ...
- كنت ذهبت وقدمت نفسى للبوليس ...
- أنت واثقة أن القضاء كان يحكم بجسك في حالة وفانى
من الحادث؟ ...
- كان ذلك مرجحاً لأنى من أرباب السوابق ...
- أنت؟ ... من أرباب السوابق؟ ...
- نعم.. فى حوادث السيارات ... سبق لى أن صدمت حماراً
محملاً بالحطب فى طريق عزبتنا فى صيف العام الماضى ، ومنذ ستة
أشهر صدمت حماراً آخر يحمل قصباً فى سكة الهرم ...
- حضرتك إخصائية فى صدم الخمر؟ ...
- ف نظرت إليه وهو مغلف فى أربطته الصحية ... وضحكت ولم
يفطن هو إلى «النكته» وهضى يقول :
- أيتها الجانية ... أنا بصفتى الجنى عليه ، لابد أن يسمع
رأى فى جريمته ... هل تريدن حكى ، أو حكم المحكمة؟ ...
- حكك ...
- حكمت عليك بالحبس ...

— تريد حبسى ١٤... —

— فى أحضان الزوجية ...

فنظرت إليه وابتمت ابتسامة المحكوم عليه الذى رضى
بالحكم ولن يستأنفه أو يناقض فيه ...

* * *

مضى عام على زواجهما ، فأدرك المهندس أن «القدر» ، حقاً
قد عرف كيف يهديه إلى «طبقة» وشطره ونصفه وزوجته المثلى ...
وقد آمن أن للقدر من الوسائل أحياناً ما لا يحظر على بال البشر ...
وهل كان مثله يتصور أنه سيلقى شريكته يوماً بهذه الطريقة ١٤...
إن كلمة «النصيب» التى يذكرها الناس دائماً فى بساطة ليست
إلا مظهراً من مظاهر فن «القدر» العجيب فى تدبير مصائر
الآدميين ...

واحتفلاً فى المساء بمرور العام على ذلك الزواج ، فهس فى

أذن زوجته قائلاً :

— كان لا بد لحواء أن تأخذ من آدم ضلعاً حتى توجد ،

وكان لا بد لك من أن تكسرى لى ضلعاً حتى أجذك ا...

كليوباترة وماك

من أسرار الحرب الأخيرة التي لم يكشف بعد عنها النقيب ما أرويه الآن.. وما من صحيفة في العالم نشرت هذه القصة العريية ، التي قد تصدم منطق الإنسان في القرن العشرين... ولسكن هذا لا يمنع من أنها وقعت بالفعل... وأرجو أن لا يسألني سائل عن مصدر على بها ... فهذا ما أقسمت أن لا أبوح به لأحد ..

كان ذلك في عام ١٩٤٤ ، في جزيرة ما بالمحيط الباسيفيكي اتخذها الجنرال « ماك آرثر » مقرأ لقيادته في حربه ضد اليابان بعد أن اضطر إلى الجلاء عن الفلبين ...

كان المساء جميلاً...والشفق مازال يدمى على صفحة سماء بيضاء كرداد العروس ، والنسيم يهب رقيقاً من البحر الهاديء النائم ... وكان « ماك آرثر » جالساً في شرفة مقره بمفرده ، وقد غرق في مقعد من القماش كمتقاعد الشواطئ ، وأرسل رأسه إلى الوراء على المسند وراح في شبه إغفائة ... تحت وقر التعب والاجهاد ، وثقل الأعباء والتعبات ...

لم يزم طويلاً ... فقد استيقظ فجأة على صوت مجاديف تمس الماء كما يمس المرود الجفن ، وموسيقى تحملها الريح ، وعطورت تتضوع

في الهواء ... ففتح عينيه ، فإذا هو أمام منظر عجيب : سفينة من
سفن العصور القديمة ، تهادى فوق الأمواج مقتربة ... مؤخرتها
من الذهب ، وشرعها من الأرجوان ، ومجاديفها من الفضة ، تتحرك
على نغم المزايير . وفي مقصورتها امرأة مستلقية على الحرير كأنها
آلهة ، يحرق بين يديها بخور وينتشر عبير ، يلعب بالرؤوس ،
ويسحر النفوس ...

نزلات تلك المرأة من السفينة ، ومشيت وكأنها تخطر في
الهواء ... نحو مركز القيادة ، وهي تقول :

— «مارك أنطوني ، ! ...»

ففرك الجزال الأمريكى عينيه وهو يقول :

— أنا «ماك آرثر» ! ...

— نعم ... أقصد «ماك آرثر» .. إليك جئت ، وأنت الذى

أريد ...

— من أنت ؟ ...

— أنا كليوباترا ...

فحصها القائد بنظرة ملياً ... وتأمل ثيابها ودمقسها ودمالجمها
ولآلئها .. ثم التفت إلى سفينتها العجيبة ، وهز رأسه باسماً وقال :
— فهمت ، فهمت ... إنما الذى أعجب له هو : كيف استطاعت

هو لا يوجد أن تعمل في هذه المنطقة الحربية بدون علي؟ وكيف حصلت على إذن في إرتياد هذه المياه الممنوعة لإخراج الأفلام التاريخية؟ ... وداهى السلطات المختصة التي يمكن أن تتحمل هذه المسؤولية دون الإلتجاء إلى رأيي؟ ... هذه مسألة خطيرة ياسيدتي ، لا يحسن الأعضاء عنها ...

ونهمض ، وعلى محياه جسد وصرامة ... وأراد دخول مكتبه ليتجرى الأمر فاعترضته الزائرة العظيمة ، ووقفت بجلاها الملكي ، وقالت بصوتها الملائكي :

— قلت لك أنا كليوباترا ، ملكة مصر ... جئت إليه من العالم الآخر ... ولعلمها أول مرة يحدث فيها ذلك ، منذ عرف الناس الحياة وعرفوا الموت ... إن عصركم اليوم عصر تقع فيه أعاجيب ، ولكن الأعجوبة الكبرى هي تمكني من العود إلى الدنيا ... كيف تمكنت؟ ... هذا ما لا شأن لك ولا لي به ... وأنا لم أحضر لأطلعك على أسرار الموت والحياة ... ولكنني أريد أن تصدقني ... لأفل لك إذن ببساطة كيف تم هذا ، بطريقتكم ولتتكم التي تفهمونها : إننا بعد موتنا فتلاشى روحاً وجسداً كذرات في الفضاء ... على أن المتعذر دائماً هو جمع هذه الذرات ، من الكون ، مرة أخرى في عين الجسد وعين الروح ... لقد استلغتم بجهاز

الراديو أن تجمعوا من الفضاء أصواتاً وتنقلوا صوراً ... ولكن أين الهوتى ذلك الجهاز الذى يجمع ذراتهم المتناثرة ، فى كياناتهم القديم وصورهم الغابرة ؟ ... لا بد أن توجد قوة هائلة تجذب هذه الذرات وتجمعها ... لقد حدثت هذه المعجزة فيما يختص بى ... لقد كنت أنت هذا الجهاز ، أو هذه القوة التى جذبتنى ، بدون أن تشعر أنت أو تعى ، إنك لا تدرك أى شبه بينك وبين حبيبي السابق « مارك أنطونى » ! ...

قالت ذلك ، و « ماك آرثر » يصغى إليها مشدوها ... لكأن إرادته قد فارقتة ... يدرك هذا من قرأ « بلوتارك » المؤرخ اليونانى حين وصف كليونباترا ... إنها ، على حد قوله ، لم تكن فى الجمال بالغة ما لم يبلغه غيرها من الجميلات ، ملاحظة وجهها لم تكن وحدها مبعث فتنتها التاريخية ، إنما هو حديثها الذى كان ينفذ فى القلوب كالشوكة ... كان صوتها هو العذوبة ، ولسانها قيثارة متعددة الأوتار ... تعالجها برشاقة وتمسها بلباقة ، فى مختلف اللغات واللهجات ... إن مقاومة سحر حديث كليونباترا كان هو المستحيل ...
ومس القائد الأمريكى كالتخاطب نفسه :

— مارك أنطونى ! ...

— نعم ... ما أعجب الشبه بينك وبينه ! ... فى وجهه وأنفه

وقوامه ... ومشيته ... بل ما أشبه دولتك بدولته ... لقد كان
الرومان فاتحي العالم بالسيف ، واليوم الأمريكان هم فاتحو العالم
بالدولار ... كان للرومان مجلس شيوخ و «قيصر» . وللأمريكان
مجلس شيوخ و «روزفلت» ...

* * *

من اللغو أن نطيل ... في البديهي أن نقول : إن «مارك آرثر»
وقع في حب «كلير باترا» .. وهل دنا منها أحد دون أن يسقط
في أتون غرامها ؟ ... ومنذ ذلك المساء وهما لا يفترقان ... كانت
معها كما كانت مع «مارك أنطوني» في أول حبهما ... لقد قيل
إنها و «قائد الرومان» كانا متلازمين الليل والنهار . . . كانا معاً
يهيمان في الطرقات أحياناً يرحان ويلهوان ... هي متخفية في زى
وصيفة وهو في زى وصيف ... أما اليوم فإنها تلازم القائد
الأمريكي في زى «ضابطة» من المجنّدات ، وقد ألحقت بمكتبته ...
وهو وضع طبيعي ... وهل يثير التفات أحد أن يكون للجنرال
الأمريكي «سكرتيرة» مجنّدة في رداؤها العسكري ؟ ...
لم يكن شيء بحسب صفو حبهما غير شبح ... هو دائماً عين
الشبح : الزوجة ...

فيما مضى كانت هي «فولفيا» زوجة «مارك أنطوني» التي

هجرها في ايطاليا . . . واليوم هي مسز «ماك آرثر» التي تركها
في أمريكا ...

يا له حقاً من تشابهه عجيب ! ...

كلاهما زوج وأب، بعيد عن بلاده . . . وكلاهما يحزن
كليوباتراً ويزعجها كلما فكر في العودة إلى امرأته وأولاده ...
ولم تلبث مخاوفها أن تحققت ... فما هي ذى المعركة الانتخابية
تقوم في أمريكا لاختيار «الرئيس» و«رشح «روزفلت» للمرة
الرابعة ... ولكن نفرأ قاموا من جهة أخرى يرشحون أمامه
«ماك آرثر» ...

هنا نهضت «كليوباترا» تدرأ عن حياها الخطر ، فاستعانت
بقوة سحرها ونفاذ قننتها لتصرف «القائد الأمريكي» عن هذه
الفكرة ، كما صرفت من قبل «القائد الروماني» عن الذهاب
لمحاربة قيصر ...

لعل هذا هو السر الحقيقي في انسحاب «ماك آرثر» من معركة
الانتخابات الأمريكية ! ...

وهكذا ظفرت «كليوباترا» باستبقاء حبيبها إلى جانبها وأقصته
عن زوجته ووطنه وذريه ...

على أنها كانت هذه المرة ذات فال حسن وأثر طيب على القائد

الأمريكي... فقد حفزه قربها وألمبه، فتوالت انتصاراته... وصار
يثب من جزيرة إلى جزيرة خلف اليابانيين... يطردهم منها ويستولى
عليها... وهو لا يرهب شيئاً إلا أن يبدو مندحراً أمام
«كليوباترا»... حتى تم له الفوز الأخير... واستسلمت
اليابان... ودخل «ماك آرثر» طوكيو دخول الفاتحين...

ومرت أيام لم ير القائد أجمل منها... وفي ذات عصر، وقفت
«كليوباترا» بجواره وأرسلت بصرها إلى البحر، وقالت:

— أندري يا «مارك» أقصد يا «ماك»... ما الذى يجول

في خاطرى؟ ...

— ماذا يا «كليو»؟ ...

— أتذكر يوم جئت إليك تحملنى تلك السفينة الجميلة؟ ...
لقد كانت هى عين السفينة التى ذهبت فيها إلى «مارك» فى
«طوروس» وقد استدعانى لأقدم حساباً عما نسبوه إلى من
معاونتى لأعدائه... ولقد أحب أحداً الآخر بعدئذ... ولكن
برغم ذلك... أى إذلال وهوان أن يستدعى رأس متوج ليثقل
أمام قائد منتصر!

ما قولك يا «ماك» لو استدعيت امبراطور اليابان ليثقل

بين يديك؟ ...

فأجفل « ماك آرثر » قليلاً لهذه الفكرة ... إنه لا يجهل
خطورة الإقدام على هذا العمل الجرىء ... إن « الميكادو » شبه
إله في قومه ...

وانظر إلى حبيبتيه متردداً متوجساً ... ولكنهما استقبلت عينيه
بنظرة منها أسكرته ... فأحس قوة تدب في قلبه دبيب الخمر ... وقال :
— سأفعل ا ... سأفعل يا كيو ا ...

ولم تـمض أيام حتى كان الأمبراطور بقمبته العالية الرسمية السوداء ،
مائلاً أمام « ماك آرثر » في مقر قيادته وعو بقميصه الكاكي ...
واهتز العالم لهذا الحادث ا ...

واستمرت بعد ذلك اللحظات السعيدة ، يرتع في ظلها
الحبيبان ، وبضحكان ويلعبان ...

وخرجا ذات يوم للصيد في خليج طوكيو ... وكاد النهار يولى
و « ماك آرثر » لم يظفر بسمكة ... وخجل من الهزيمة أمام حبيبتيه
العظيمة ، فغافلها واتفق مع أحسد الصيادين الحاضرين ، على أن
يفوص في الماء ويضع في سنارته سمكة من صيده الطازج ، ونفذ
الاتفاق ، وجذب القائد سنارته ، فإذا بها سمكة كبيرة ، أراها لحبيبتيه
مزهواً ... ولكن كليونانرا لم تكن بالغافلة ... وأعدت للغد
عدتها ... واتفقت هي الأخرى مع الصياد سراً ... فلما جاء الغد ،

وضع دماك، سنارته في الماء إلى أن شعر بشقلها فجذبها... فإذا بها :
سردينة كبيرة ملحة مما يباع في صناديق البقالين ...
ارتفعت عندئذ قهقهة الحاضرين ... وكاد القائد الأمريكي
يغضب ، لولا قول كليوباترا البارع اللبق :

— أيها القائد الظافر ! ... مالك وصيد السمك ؟ ... اتركه
لنا نحن العاديين والعاديات ! ... أما أنت فصيدك الجزر والمدن
والملوك والأمهراطوريات ! ...

ما من أكليل غار يعدل هذا الإطراء من فم « كليوباترا » ! ...
عند ذلك ألقى « دماك » بصعاً صيده ، وأقبل عليها وقلبه يقطر
حباً ، وهو يهمس :

— يا عزيزتي كليو ! ...

* * *

لكن الحب شديد النهم ... إنه يأكل كل شيء حتى نفسه انه
لا يقنع أبداً ... ولا يعرف نهاية ولا حداً ... لقد جعل
« دماك آرثر » همه الأكبر بعدئذ مطالعة كتب المؤرخين ، اليونان
واللاتين ، الذين كتبوا عن كليوباترا ... وخرج من هذه القراءة
بقلب نهشته الغيرة ... لقد تبين له أن أكثر كلمات حبيبتة التي
تساجيه بها وتخلب ابيه ، سبق أن قالتها بنصها ولفظها للمارك أنطوني ! ...

ودخلت دكليوباترا، عليه يوماً ، فأبصرت في يده كتاب
« بلوتارك » مفتوحاً على فصل يصف أخبارها ... ففهمت لساعتها
ما يجيش في صدر حبيبها المقطب الجبين ، فابتدرته قائلة :
— أرجوك أن لا تصدق ما يهرف به هؤلاء المؤرخون ...
— كيف لا أصدق والعبارات التي أوردوها هي عين
عبارتك التي أسمعها اليوم من شفقتك ؟ ...
— اسمع يا مارك ...
— من فضلك ... أنا اسمي ماك ... ماك ... إلى متى تظلمين
تخاطبين بيني وبين الآخر ؟ ...
— ثق أنى لا أخطئ ... وإنما لسانى يغلط ... هذا طبيعى ،
أولا تريد للسانى أن يخطئ وهو الذى تعود ذلك الاسم منذ
عشرين قرناً ١٩ ...
— إياك بعد الآن أن تمزجى بيننا ... تذكرى دائماً أنك
رأيتته مندحراً ... أما أنا فإنك رأيتنى منتصراً ...
— نعم ... لقد كان حبي له شؤماً عليه ... أما حبي لك ،
فكما ترى ، سعيد الطالع ... ولولاي لما انتصرت ... بمجرد بك
أنت أن تذكر دائماً أنى عدت إلى الحياة من أجلك ... هذا ما لم
يحدث لبشر غيرك ! ...

سكن عندئذ نائر القائد الأمريكى واستقرت نفسه ... ومضت أيام وهو هادىء مطمئن راض عن حبه ... ولكن الحب لا يرضى ولا يطمئن ... لأنه إذا فعل ذلك نام، وهو كالقلب إذا نام مات ... ورونت فى رأس «ماك أرثر» عبارتها الأخيرة : « هذا مالم يحدث لبشر غيرك، ا... فردد مخاطباً نفسه ذات ليلة :

— حقيقة ... هذا مالم يحدث من قبل ... هذا هو المجد الذى لم يبلغه بشر ... كليوباترا تعود إلى الحياة من أجلى ا... ولكن من يعلم ذلك حتى الآن؟ ... لا أحد سواى ... وما قيمة ذلك إذن؟ ... ترى ماذا يحدث لو أذيع هذا الخبر العجيب، ونشر فى صحف الدنيا : « كليوباترا بعثت لملك أرثر، ا...»

تلك هى المعجزة التى تتضاءل بالقياس إليها ألف أعجوبة مثل القنبلة الذرية ا...

وتملكته هذه الفكرة، واستحوذت عليه الليالى الطوال ... لا بد أن يكشف أمر كليوباترا للعالم المتحضر ... ولم يتمالك ؛ ففانحما برغبته قائلاً :

— اسمعى يا كليوا ا...

— إنى مصغية يا ماك ...

— أخبرينى .. هل فكرت فى المستقبل ... أعنى فى مستقبلك؟ ...

— مستقبلي ١٩... —

— نعم... أتظنين هكذا دائماً ضابطة مجنونة في غمار المجنونات
لا يدرى بك أحد؟... أنت أجمل وأشهر ملكات التاريخ... تهبطين
الدينا ولا تشعر بك الدينا؟... تصوري، لو أذيع أمر وجودك،
أى أقواس نصر تقام لك في كل مكان، وأنا بجوارك تفرح بك...
إنهم في أمريكا يحسدون من يقترن بإحدى النبيلات، فإذا هم
قائلون يوم يرون «ماك آرثر»، وفي ذِءاعه «كليوباترا»، أبيه
المللكات وألمح المتوجات... —

— أيها الأمريكي، أهذا هو الذي يشغل بالك الآن؟... —

— أهذا هو مصير حيننا؟... تريد أن تستخدمه أداة إعلان؟... —

— بل أريد أن يكرمك هذا العصر... —

— يكرمني؟... أتدرى كيف سيكون تكريمي؟... إني أعرف

ما ينتظرنى فى بلدك... سأكون ملهاة للسياح، يأتون لمشاهدتى من
أطراف الأرض، ومادة للصحفيين والمراسلين لا تنضب،
وموضوعاً للنساء فى الصالونات والحفلات والمسارح والسباق،
يثرن الإشاعات حولى، وينهشن بألسنتهن لى، ويتضاحكُن
ويتغامزن قائلات: «أهذه هى النى قال التاريخ إنها فتنت القواد
هو القياصرة؟... ماذا فيها من حسن وسحر وإغراء يثير الرجال؟...»

— بل ثقي أنك ستكونين أعظم امرأة في زماننا هذا ...
— أعظم امرأة ثروة ... هذا محتمل جداً وجائز جداً ... فإن
شركات الأزياء الكبرى في أمريكا ستتزاحم عارضة على أبهظ
الأجور لأروج لها أثوابها . . . وشركات الزينة والجوارب ،
والعطور ، والصابون ، وكبار الحلاقين ، ودور النشر ، والمصورين ،
ورجال الصناعة والمال والأعمال . . . إلخ . ولاتنس شركات
هوليوود السينمائية ... فن المؤكد أنها ستتهافت طابطة إلى القيام
بدور «كليبواترا» في نظير ، بل بلغ لم يدفع قط لإنسان ، وإن مثل
ذلك عن مسارح برودواي الشهيرة ، ومن يدري ما ستعرض
على أيضا من عمل ومن مال ...

— طبعي جداً أن يكون لك مال كثير وثروة ضخمة ، لتقتني
الجواهر والنفائس ، وتملكي في كل قارة أكثر من قصر . وفي كل بحر
أكثر من يخت ، وتعيشي حياة القرف الخليفة بك وباسمك العظيم ...
— اسمي العظيم ... حقاً سيكون كذلك ، يوم أراه منقوشاً
بتوقيع الكريم على كل عاية بودرة وكل زجاجة كلونيا وأحمر
شفاه ، وصبغة أظافر ... هذا «و عصرك وبلدك ... وهذا هو
حبك ... وهذا هو كل مستقبلي ! ...

وقامت خاضبة ، وفي عينها دمعة ، أخفتها بأصبعها «

هـ انصرفت مسرعة ، فنهض دماك ، خلفها وهو يصبح بها :

-- كليو ... كليو ... إني أمرح ! ...

-- لا ... أنت لا تمزح ... إني أقرأ ما في أعماق نفسك ... إنك

لمن تستطيع طويلا أن تقنع بحبي لك في زى ضابطة ... أنت تريد

أن أحبك أمام الدنيا في ثياب دكليو باتراه وإن صبرت اليوم فلن

تصبر غدا ... إني أعرف غروركم ! ...

-- لن أقدم أبداً على أمر يغضبك ...

وبرق عندئذ في رأسها خاطر ، فقالت :

-- ومع ذلك ... فقد فاتنا شيء خطير ... ليس في مقدورك

أن تكشف أمرى ... إن ذلك يعرضك لكارثة :

هب أنك أقدمت وأعلنت حقيقتي للناس ... أتعلم ما الذي

يحدث ؟ ...

-- ماذا ؟ ...

-- يحدث لك ما حدث لكل من أعلن مثل هذا الأمر من

قبلك : إن يصدقك الناس ... فإذا أصرت وماريت وجادلت

تقادوك بكل بساطة إلى مستشقى المجازيب ...

-- ماذا تقواين ؟ ...

-- أقول الحقيقة ... لقد كذبت عليك يوم قلت إن ظهورى

لك لم يحدث مثله من قبل لبشر ... الواقع أن كثيرين من الموتى
يظهرون الأحياء ... وأن كثيرين من الأحياء يعيشون ويختاطون
بالموتى ... إن الحاجز بين العالمين غير موجود ... إنه حاجز
وهي ، هو العقل الذى يسدل ذلك الستار بين هذين العالمين ...
ولسكن من الداس من يخرج أحياءاً على سلطان العقل ، فيرفع في
الحال الستار لنفوسهم ويصرون ما وراءه ويمتزجون بمن خلفه ...
فإذا احتفظوا بهذا السر لأنفسهم سلخوا ... أما إذا باحوا به فقد
اتهموا بالجنون ... ثق أن كثيرين قد ظهرت لهم « حتشبسوت »
و « نفر تيتى » و « سميراميس » كما ظهرت أنا لك ... وعاشوا
متحابين آمنين ما بقى السر مكتوماً ... أما الذين قعدوا ضبط
أعصابهم فأعلنوا ذلك للناس ، فهم أولئك الذين تراهم يعمرن
مصحات الأمراض العصبية والعقلية ...

— ما أظلم الناس ! ...

— بل ما أظلم العقل ... هو الحاكم المسيطر فى حياة البشر ،
الذى يجب عنهم نصف الوجود ، فمن جرؤ ونزعه ليرى
خارجة ... لم يقل الناس إنه تحرر ، بل قالوا إنه مرض ... ذلك
أن هذا الحاكم الجبار - ككل طاغية - لايسمى الخارج عليه متحرراً ،
بل يسميه مريضاً يستحق العلاج والحبس ...

- من حسن الحظ أن أمريكا بلد الحرية ، ونحن فيها نكروه
الطغاة والمسيطرين... وإنيك ستين للحرية تمثالا عظيما عند مدخل
نيويورك ... فاطمئني يا كليو ، ولا تخاف شيئا ...
— حقا ... إنها الحرية في تمثال ، ولا أكثر من تمثال
ستبوح للناس إذن ؟ ...
— لا ... لا ... لم أقل ذلك ...
— أرى في عينيك ...
— إذا وافقت أنت ... ومن يدري ؟ ... قد توافقين يوما ...
— ستري إذن ما أصنع ...

* * *

- مرت أسابيع ... وإذا صحني ذو شأن يأتي من نيويورك
ليجري حديثاً مع « ماك آرثر » ...
وطالعت « كليوباترا » في وجه القائد الأمريكي ما راها وأثار
قلقها ... وأدركت أنه قد لا يستشيرها ، ورجحت أن لسانه
سينطلق ... وأنه قد يضمها أمام الأمر الواقع وجهاً لوجه ...
ويقدمها للصحنى قائلاً :
— « الملكة كليوباترا ، أو « مسز كليوباترا » ، ...
لم تطاق هذه الفكرة ... وأسرعت من فورها تبحث عن

ثعبان ...

لقد جربت الموت من عضته... إنه لا يحدث تشنجا ولا تمزقا، بل يفرق الإنسان في شبه نعاس هادىء يتمنى من يقع فيه أن لا يصبح منه ... إلى أن تضعف حواسه ويموت موتا لذيذاً ... غير أنها ذكرت وقتئذ أن «الاسبيرين» يحدث اليوم عين الأثر ... فاضطجعت على فراشها وهى بملابس الضابطة... فابتلعت أنبوبتين ...

وعلم «ماك» بالحادث ... فدخل عليها مسرعا ، فوجدها فى النزاع الأخير ... وانحنى عليها متفجعا ، وهمس فى أذنها :
- كليو ... كليو ... ماذا صنعت ؟ ! ...

فقالت وهى تحتضر :

- هل أخبرت الصحفي ؟ ...

- كلا يا كليو ...

- ماك ... احفظ سرى فى قلبك وحده ا ...

وأسلت الروح ... للمرة الثانية ... وربما للمرة الثالثة أو العاشرة ... أو المائة ... لا أحد يدرى ...

ظل هذا السر مكتوماً بالفعل زمناً ... إلى أن «رض «ماك آرثر» بحمى خفيفة ، فجعل يهذى فى الليل ، ويقول للممرضة

القائمة على فراشه :

— كليو ... كليو . . . هل عدت إلى الحياة مرة أخرى
من أجل ١٩ ...

وحار جميع من حوله في أمر « كليو » هذه ... فهم لم يسمعوا
« الجزال » يلفظ هذا الاسم أمامهم من قبل ...

وتساءلوا من تكون ؟ .. أتراها تلك الضابطة « مسز كليتون »
سكرتيرته التي أمضها الأرق ، فماتت منتحرة بالاسبيرين ١٩ ...

هكذا قال من أخذ الأمور بطواهرها ... أما الحقيقة التي لم
تنشر حتى الآن ، فهي التي رويت هنا بحذافيرها ... ولمن يرتاب
أن يلجأ إلى الجزال « ماك آرثر » نفسه ... وهو لن يستطيع أن
ينفي الواقعة ...

موقف حرج

حدث ذات صباح أن كنت جالسا على إفرير المقهى المعتاد بجوار صديقي حسن « بك » ... وهو ليس من أصحاب الألقاب ولا حملة الرتب ، واسكن هكذا نناديه ، لأن حب المظهر شيء في دمه ، والرغبة في « التظاهر » طبع فيه ...

مر بي في ذلك اليوم مصادفة ، فأجلسته وأكرمه ، ولم أكن رأيتَه منذ شهور ... وأمرت له بفنجان من القهوة ... وأخذنا في الحديث ... وإذا شخص يدنو مني مبتسما متردداً ، فالتفت إليه وبادرتَه :

— من حضرتك ؟ ...

— أنا اممي ... مرقص ...

— طلباتك ؟ ...

فقال علي أذني هامساً :

— هل تقبل أن تسكب خمسين قرشاً في اليوم ، وأنت جالس في مكانك هذا ، بدون أن تصنع شيئاً ؟ ...

— بالطبع ... لا موجب للرفض ...

فلتتها على البديهة ، كأنها من وحى الشعراء .

فبادر الرجل يقول :

— إذن اتفقنا ... وهذه دفعة على الحساب ...
وأخرج بالفعل ورقة مالية من فئة الخمسين قرشاً ، دسها في
كفي ، فوضعتها على الفور في جيبى ، وأنا أقول :
— اتفقنا ...

وانصرفت عنه إلى استئناف الحديث الذى انقطع بينى وبين
حسن « بك » ، ولكن الرجل حدجنى بنظرة شديدة وقال :

— ألا تسألنى عن أصل الموضوع ١٩ ...

— أى موضوع ؟ ...

— لماذا إذن أعطيك هذه النقود ؟ ...

— وهل أنا أعرف ؟ ... كل معلوماتى فى الأمر ، أنه قد تم .

بيننا اتفاق ... ألم يحصل بيننا الآن اتفاق ؟ ... ألم يقع عرض .

وقبول ؟ .. أما من جهتى فقد قبلت وانتهى الأمر .. بهذه المناسبة

أحب أن أستفسر منك لماذا تعطينى هذا المبلغ ؟ ...

— أخيراً ... اسمع يا سيدى ... المسألة بسيطة ... أنت تجلس .

هنا دائماً تراقب المارة فى غير شىء ، فلن يكلفك جهداً أن تراقب

سيدة يقال إنها تتردد على هذه العمارة ... فتعرف لنا فى أى ساعة

بالضبط تدخل ، وفى أى ساعة تخرج ؟ ...

- وما شأنك بهذه السيدة ؟ ...
- لا شأن لي بها على الاطلاق ، ولم أرها قط ...
- عجباً !... وما الداعي إذن لأن تجعلني «شيلوك هولمز»
- في مسألة لا تعنيك ولا تعنيني ؟ !...
فتنخح الرجل ثم قال :
- فلتتكلم بهراحة... لا أحسن من الصدق والصرامة.. أنا
في الحقيقة المكلف بهذه المراقبة في نظير مبلغ جنيه ، ولكني مشغول
بعمل آخر ، وليس لدى الوقت الذي يمكنني من أداء هذه المهمة ...
ففسكرت في أن أستأجرك من الباطن ، وتقاسم المبلغ ..
- عظيم يا مرقص أفندي... أنت في الحقيقة هو الذي لا يصنع
شيئاً ويتقاضى خمسين قرشاً ...
- وأنت أيضاً لا تصنع شيئاً ...
- كيف تقول ذلك يا مرقص أفندي ؟ ... أنا الذي سأقوم
بكل المهمة ...
- بالاختصار تريد أن أزل لك عن جزء من حصتي ؟ ...
فليكن ما تريد ... أنا لا أحب أن أعضبك ... إليك عشرة
قروش أخرى ...
- خمسة وعشرين من فضلك !...

— تريد أن تأخذ ثلاثة أرباع الجنيه ، وأنا الربع ١٩... —

— هكذا العدل ...

فنفخ الرجل غيظاً... ولكن لم يجد من القبول بدأ... فأخرج من جيبه فرق المبلغ ، وفقدني إياه دون أن ينبس بحرف... فوضعت النقود في جيبى ووعدته خيراً ، وانصرفت عنه إلى محادثة جليسى ... ولكن الرجل لم ينصرف ، ودنا منى يقول :

— حضرتك لم تسألنى عن السيدة ...

— أى سيدة ؟ ...

— التى ستراقبها ... كيف ستقوم بمراقبتها وأنت لم تعرف

منى أوصافها ؟ ...

— حقيقة ... غاب عن فطنتى ذلك ... اذكر لى أوصافها ...

— خير من هذا أن أريك صورتها ، لتستطيع ملاحظها فى

رأسك جيداً ... إليك الصورة ... انظر ...

وأخرج من محفظة جيبه صورة فوتوغرافية لامرأة مليحة

أطلعنى عليها بخذر وهى فى يده ... فقلت له :

— هل تسمح لى أن أحتفظ بالصورة ؟ ...

— ليس هذا من المستحسن ، لأنى وعدت أن أحرص عليها

ولا أسلمها لأحد ...

- ومن الذى أعطاك إياها ؟ ...
- لا يا سيدى ، هذه أسرار خاصة ، لا يجوز لنا الخوض فيها ... هذا لا يعنيننا ... فلنعمل فى حدود التكليف ، ولا دخل لنا فى الباقى ...
- أهو زوجها ؟ ...
- لا أظن ...
- لعله خليلها ؟ ...
- ربما ، ..
- خليلها يشك فى سيرها ويغار على سلوكها ١٩ ...
- فراستك فى محلها ... على كل حال هذا باب أنصحك ألا تفتحه أو تفتش خلفه ... أسرار العائلات وخفايا البيوت يجب أن تكون عندنا فى الحفظ والصون ...
- مفهوم ، مفهوم ...
- والآن ... أنا معتمد عليك ...
- اطمئن . فقط لا أخنى عنك أن ذاكرتى ضعيفة ولا يعتمد عليها ، فمن مصلحة العمل أن تترك لى الصورة ، ولو ليوم واحد ، أرجع إليها وأطابق حتى لا يحدث لبس أو غلط ... إن السيدات الممارات كثيرات ... ومن الصعب على مثلى أن يقرز هذه من تلك ...

ففكر الرجل لحظة ، وهرش رأسه قليلاً ثم مدلى يده بالصورة وهو يقول : « لا بأس ... أبقها معك اليوم ، وأوصاني بالمحافظة عليها لحين ردها إليه في الغد ...

وانصرف مرتصق أفندي مشيعاً بعبارات التجلة والاحترام ، وما كاد يتخفى عن بصري ، حتى ملت على جليسي حسن بك وقصصت عليه القصة من أولها إلى آخرها - مع حذف مسألة الخمسة والسبعين قرشاً بالطبع - وختمت الكلام بقولي :

— أنت تعرف أن غفقتي أكبر من فطنتي ، وأن سهوى أكثر من صحوى ، أما أنت فكثير الفطنة ، شديد اليقظة ، فما رأيك لو قمت عنى بهذه المهمة ... وألقيت بالك إلى كل سيدة تدخل العمارة أو تخرج منها ، وتطابق أوصافها على الصورة التي سأطلمك عليها الآن ؟ ... على أنى قبل كل شيء أحب أن أصارحك بأن هذا عمل بأجر ...

فضحك حسن بك وقال :

— لا عليك ... إننى سأعوم به لوجه الله ...

— لا ياسيدى الفاضل ... الشغل شغل ... لا يوجد شيء اسمه

لوجه الله ... وهل تظن وجه الله يرى بلا ثمن ؟ ... هذا التعبير خطأ فى خطأ ... ولست أدري من ابتدعه ... إن وجه الله لا يشاهد بالمجان ،

بل بمصروفات ... وإليك البيان : لا بد من دفع صدقة وزكاة ،
ونذير ، وفداء ، وكفارة ، ونفقات حج ، وتكاليف زيارة ، وإغاثة
ملموف ، والتضحية في العيد بخروف .. إلى آخر تلك المبالغ التي
لو جمعناها لكان الحاصل رقماً لا يستهان به ... فدع فكرة التبرع
وتناول أجر عملك طبقة الأصول المعمول بها في جميع الأحوال ..
— أمرك ... أتقيني الأجر إذن ...

— سأدفع لك ثمن فنجان القهوة ... أتقبل ؟ ...

— قبلت ...

قالها راضياً مغتبطاً ، ومد يده ليتناول من يدي الصورة ...

فقلت له :

— مهلاً ... يجب أن تردها إليّ قبل قيامك ... فقد وعدت أن

أردها إلى الرجل غداً ...

فقال بابتسامة بريئة :

— طبعاً ... وما الداعي لاحتفاظي بها طويلاً ؟ ...

فوضعتها في كفه ... فرفعها إلى عينيه باسمياً بغير اكرات ...

ولكن لم يؤكد بصره يقع عليها حتى امتقع لونه ، وارتجفت

بداه ، وارتعشت شفثاه ... زهالني أمره . فقلت له :

— حسن بك ... مالك ؟ ...

فلم يجب ... وخيل إلى أن أذنه لم تعد تسمع ... وجمدت عيناه
على الصورة وتصبب العرق من جبينه ... فمززته يدي قائلاً :

— مالك يا حسن بك؟ ... هل ... هل تعرفها؟ ...

فقال بصوت ميت ينشر من قبر :

— كيف لا أعرفها وهي ... زوجتي ؟! ...

واتفضل الرجل انتفاضة خلعت روحه قد خرجت معها ،
ورثب من مقعده ، وانطلق في الشارع يعدو كالجنون ... ولم يلبث
أن غاب عن نظري الشارد ، وفكري الذاهل ... وكدت أصبح
في أثره :

— الصورة ... الصورة ...

ولسكني تذكرت فجأة كارثته ... وأدرت أنها له ... وأنه
أحق أهل الأرض بحملها والاحتفاظ بها ... فلسكت نفسي ...
وثاب إلى رشدي قليلاً قليلاً فلعلنت يومى ... ولعلنت مرقص
أفندى ... ولعلنت الخمسة والسبعين قرشا التي خسرت من أجلها
صديقي ، وخسر اصدیق زوجته ، وخسرت الزوجة خليلها ...
ولو كنت أعلم أن المهمة ستؤدى إلى هذه الفواجع كلها ، لطالبت
مرقص أفندى بما لا يقل عن خمسة جنينيات ...

مراكب الشمس

(١)

رقدت زوجة فرعون على فراشها المملكي تستقبل الموت ، ولم
تمكن عيناها المنطفئتان متجهتين إلى زوجها الحزين بجوارها
ولا إلى وصيفتها الواجحة ... بل إلى حياتها هي ... إلى ماضيها ...
ويا له من ماضٍ فارح على قصره ... وبإلها من حياة فاترة فقيرة
على الرغم مما يحف بها من أبهة و ثراء ... إنها تموت وهي في ربيع
العمر ... ما أجمل يوم صادفته على الأرض ، حتى تستطيع الساعة أن
تبكيه بقلبها الذي لم يبق أمامه غير بضع نبضات ؟ أما دمع العين
فقد جف مع نبع الحياة التي قهرها المرض ، ما هو أجمل يوم لها
في عمرها الذي لم يتجاوز الرابعة والعشرين ؟ ... أهو يوم زُفَّت
إلى زوجها وأخوها ... هذا الفرعون الشاب الواقف عند رأسها ؟ ...
لأنه أخوها من أبيها وأما ... معه نشأت منذ الطفولة ... وهي
تجبه ولا شك ، ولكن ... لا ... إنها تعرف الآن أن هذا ليس
هو الحب الذي ينبض له القلب ... وهل نبض قلبها مرة ؟ ...
نعم ... مرة واحدة ... انتفض وأضاء وانطفأ ... كاختلاجة
الشمعة الأخيرة ... تاركا حياتها بعد ذلك في الظلام ، لأنها تذكر

تملك اللحظة ... كان مساء رقيق النسيمات في يوم من أيام الربيع
الماضى ... خرجت إلى النزهة في النيل ، وقد أعدت القوارب
الملكية ، وأحاطت بها الجوارى بالدفوف والمزامير وآلات
العزف ... فأقبل الشعب في جموعه لتحية الملكة الجميلة ... وإذا
هى تشعر فجأة بعينين تنفذان من بين سواد الشعب كأنهما شهابان
ملتهبان ، لمعا سريعا وسقطا في هوة قلبها الفارغ ... من صاحب
هاتين العينين ؟ ... ولماذا حدق في وجهها هذا التحديق ؟ ... ولماذا
ارتجفت لظراته ؟ ... كل ما تعلم هو أن الحراس أبعده عن
طريقها ، وأنها سارت بعد ذلك على غير هدى ... تلك هى الخليجة
الأولى والأخيرة لهذا القلب الملكى ... أما الآن فإذا ينتظرها ؟ ...
نزهة أخرى في قارب آخر ... مركب الشمس ! ... نعم ... إنهم
ولا شك قد فرغوا من صنعه لها وإعداده وعمما قليل تحنط
ويلقى جثمانها في تابوت مزخرف وبوضع في قبر سرى . . .
أما روحها فيتلقاه الكاهن الأكبر ، ويحمله إلى مركب الشمس ،
بين تراتيل الكمنة وصلواتهم ... ثم يلفظ كلماته السحرية فيرتفع
المركب بالروح إلى الفضاء نحو أبواب السماء الأربعة والعشرين ...
هذا ما عرفته يوم مات أبوها الفرعون الكبير ، كات في الرابعة
عشرة من عمرها ، لا تدرك كثيرا عما يجرى حولها ، ولكنها

رأت تلك المراسيم . . . وسألت يومئذ كبير الكهان بسذاجة
الطفولة بعد أن فرغ من عمله :

- هل ارتفع المركب بروح أنى إلى الفضاء ...؟
فقال الكاهن :

- نعم ... وهو الآن يسبح في شعاع الشمس ، وتضرب
مجاديفه النور المتدفق كالأمواج ، على نغم الأغاني والأهازيج ...
فقال الطفلة وهي تنظر إلى مركب الشمس بخشبه المصنوع
من شجر الأرز :

- وليكن المركب في مكانه لم يتحرك ! ...
هأجاب الكاهن :

- روحه هو الذى تحرك ... حاملاً روح أريك ...
فسألت الطفلة :

- وما هو الروح ؟ ...

فقال الكاهن :

- هو أنت بغير ردائك الجسدى ! ...

ولم يدع لها فرصة سؤاله بعد ذلك ... كأنما هو قد ضاق
بالحديث مع الأطفال فى هذه الشؤون . . . فانصرف سريعاً .
وتركها تسأل نفسها عما لم تفهم . . . وهيئات أن تفهم . . .

وهي ذى ... الآن في موضع أبيها ... وبعد برهة يأتي نفس هذا الكاهن ويلفظ كلماته السحرية ويعلن أن روحها قد حمله مركب الشمس ، ساجداً به في أمواج النور ... ولن يجد بعدئذ من يلقي عليه أسئلة ... لأن السؤال الأخير الذي لفظته شفاتها وهي تلتفظ آخر أنفاس الحياة ، وهو ما لن يجيبها عنه أحد ، هو :
— لماذا ، ولمن خفق قلبها تلك الخفقة في مساء ذلك اليوم من أيام الربيع ؟ ...

(٢)

كان صانع مركب الشمس الذي سيحمل روحها إلى السماء ، قد فرغ من عمله ، وجاءت جماعة من الكهنة فحملوا المركب إلى حيث تجرى عليه الطقوس ... وألقى الصانع نظرة أخيرة على مركبه من عينيهِ الناقدتين ، ثم مضى إلى حانة نبيذ اعتاد أن يلتقي فيها برفاقه ... دخل الحان رارتمى إلى جوار صديقه ناحت التماثيل ، دون أن ينبس بحرف ... كانا صديقين قديمين ... جمع بينهما الصبا ... وربط بين قلبيهما حادث لا ينساه المثال ، فقد هبط النيل يوماً ليأتي ببعض الطمي ، ففاجأه تماسح كاد يفترسه ، لو لم يعاجله صديقه النجار بضربة من سكينته . معرضاً حياته للخطر . كان كل منهما موضع سر الآخر ... و يوم أحب المثال وصيفة الملكة ،

لم يتردد في إحاطة صديقه بكل التفاصيل ... قال له إنه صادقاً
مرات يوم كان مكلفاً بنحت بعض التماثيل لفرعون ، وإن الأمر
بينهما انتهى بما يشبه الخطبة ، لولا مرض الملكة ...
أما صانع مركب الشمس فكان في صدره سر ، لم يجرق أن
يبوح به لصديقه ولا لمخلوق ... إلى أن كان ذلك اليوم ...
جلس صامتاً ، فالتفت إليه صديقه المثال ، وقد طرح من يده
القدس :

— أراك تبكي ! ...

— أترى في عيني دموعاً ؟ ...

— ليس في عينيك ...

قالها المثال بنبرة من يؤكد أنه أعرف الناس بما في أعماق
صديقه ... وصمت الاثنان لحظة ... وعاد المثال إلى قدحه ، فجرع
منه جرعة ... ثم قال لصديقه :

— إنك تخفي عنى سرأ ...

فأجاب صانع المراكب بغير مقاومة :

— نعم ...

— لماذا ؟ ...

— لأنه جنون ...

- تكلم ا... إني صديقك الوحيد ...
- فأطرق صانع المراكب هنيئة . . . ونظر إلى وجه صديقه
ملياً ... ثم عاد إلى الإطراق ... فقال له المثال :
- تخفي عنى ا؟ ... أتخاف منى ؟ ...
- بل أخاف عليك ... أخاف أن تفجع ...
- لا تخف ... تكلم ا ...
- فتجلد النجار وتحامل وهمس :
- أحببتها ... ولم أزل أحبها ... وسأحبها دائماً ...
- من هى ؟ ...
- الملكة ، ..
- فمكاد القدر يسقط من يد المثال .. ولفظ من شففتين ترعجان :
- ماذا تقول ؟ ...
- ألم أقل لك إنه جنون ...
- أطلقها مع ضحكة صغيرة كضحك الخبولين ، جمعت صديقه
المثال ينظر إليه فاحصاً وقد سرت في جسمه رعدة ... ولكنه
تماسك وسأله :
- ومتى رأيتها ؟ ...
- فهمس صانع المراكب وكأنه يرى ما يقول مائلاً أمامه :

— ذات مساء في يوم من أيام الربيع ...

(٣)

كانوا قد فرغوا من تخنيط الملكة ، وأخذوا يلفونها في الأربطة البيضاء قبل أن توضع في التابوت... وكانت الوصيفة بين الحاضرين دالعة العينين ... فاقترب منها كاهن صغير وأسر في أذنها كلاماً ، فهزت رأسها برفق إشارة الموافقة ... وما أن انتهى عملها ، حتى انسلت خارجة إلى دار خطيبها المثال... حيث وجدته منفرداً بصديقه النجار ... فما كاد يراها داخلة حتى نهض يستقبلها بقوله :

— لي عندك رجاء ! ...

هذا الرجاء لم يكن له هو في الحقيقة .. إنما هو ثمرة مناقشات وتوسلات دامت أياهاً بيذه وبين صديقه ... لم يكن للصديق من مطلب في الحياة بعد موت الملكة إلا الحصول على تمثال لها ، يعيش إلى جواره ، ويبنه حبه الخالد... لكن كيف الحصول على تمثالها ؟ . إن هذه الملكة الشابة لم يصنع لها غير بضعة تماثيل رسمية لا سبيل إلى الوصول إليها... ثم هي فوق ذلك غير متقنة التصوير ولا بارعة التعبير... فهذه الملكة المسكينة لم يمد لها في العمر حتى يحفل بأمرها الفن ... فقد كان أكثر المثالين الرسميين مهتمين بتماثيل الملك ... وعندما قال المثال لصديقه النجار إنه لم يكلف بصنع تمثال واحد

للملكة ، إنما كان صادفا ... عندهم طلب إليه الصديق أن يصنع لها
تمثالا من أجله ... من أجله هو الذى أحبا حية وميتة دون أن
يخاطبها أو تخاطبه ... دون أن تعرف من هو ... دون أن تشعر
بجبه ... دون أن يصل بينهما غير سماع من نظرة ، فوق هوة
كتلك التى تفصل بين أرض ونجم ... وحي النجم قد انطفأ ...
كل ما يريد من الحياة هو تمثيلها ... أيضا عليه الصديق بصنعه ؟ ...
ولكن كيف يستطيع المثال صنعه وذاكرته لا تبنى من الأصل غير
أثر باهت المعالم ... فهو لم ير الملكة إلا فى شبهة لمحة خاطفة ،
ولم يتأملها التأمل الكافى .. وهو الآن لا يذكر من ملاحظتها شيئا ...
لو استطاع أن يشاهد وجهها الآن ولو لحظة لأمكنه صنع
المثال ... عندهذا صاح به صديقه أن هذا الأمر ليس بعسير ...
إن الوصيفة خطيبته ... وفى مقدورها أن تدبر له الوسيلة ، فيرى
وجه الملكة قبل أن يحكم عليها غطاء التابوت ... ومن يدري ؟ ...
ربما أتاح له الصديق وأراد له القدر أن يصنع فى الفن أثرا عظيما ...
فهو لا يكافى بتمثال رسمى لإرضاء ملك ... ولكنه يخلق فئا من
وحي الشعور ... وهكذا تم الإغراء ... وتحمس الفنان ، إرضاء
للفن وللصدقة فى آن ...
... لى عندك رجاء ! ...

قالها المثال للوصيفة مكرراً ... ثم شرح لها الموضوع . ، ، .
فأجفأت وارتاعت ... ما هذا الجنون ؟ ... أهنالك مخلوق يفكر في
رؤية ملكة متمدسة وهي في تابوتها ليصنع لها تمثالاً ؟ ... هذا
بالطبع كل ما فهمته ... فالمثال لم يجرؤ أن يفضي إليها بحب صديقه
الملكة ... كل ما قال هو أنه يقدرها ولم يجد بين تماثيلها ما يستحق
الخلود ... وأن الفنان قد راقب له فكرة القيام بهذه المهمة ،
ويرجو من خطيبته أن تعاونه على تحقيق هدف في جليل ...
وانتهى الأمر بالوصيفة أن أذعنت لرجاء خطيبها الفنان
وقالت :

— فلنسرع إذن قبل أن يغلق التابوت عند الفجر .. ورسمت
الخطئة ... إنها تعرف سرداباً خفياً يصل إلى مكان التابوت وصفته
لها ... وأوصتها أن يجيئها في ثياب السكينة ، عند منتصف الليل ...
وستكون هي في الانتظار عند باب السرداب ... وتركتهما وهي
تحذر حبيهما الفنان باسمته :

— وحذار أن تكثُر الليلة من الشراب ! ...

(٤)

انفق الصديقان على اللقاء في الحان المعهود عند هبوط
الظلام ... وأقبل صانع المراكب فوجد صاحبه الفنان قد سبقه ، -

وملا جوفه ببضعة أقداح وهو يقول متميلاً :

— لا تحش شيئاً ... إن قليلاً من النبيذ يشحد ذاكرتى ...
وأنا أحوج الناس الليلة إلى الذاكرة القوية... فعلى صفحتها أستطيع
صورة النموذج ... ذلك الانطباع الذى سيمدنى بالوحى ...

فنظر إليه صانع المراكب بقلق :

— ولكنك أسرفت ...

فقال الفنان ضاحكاً ضحكة صاخبة :

— أنا ؟ ... مطلقاً ... إنى أعرف معيارى ... ويجب أن أزيد
قليلاً عند القيام بعمل هام ... تلك عادتى ... وبهذا صنعت من
التأثيل أعاجيباً ...

ورفع قدحه وجعل يجرع حتى سقط القدح من يده ...
وعندئذ لم يتمالك صديقه وأنهضه بعنف وخرج به من الحان ...
وسار به يسنده حتى لا يستط ، إلى أن بلغا دار الفنان ، وكان من
المتفق بينهما أن يغيرا فيه ثيابهما ، ويرتديا ثياب الكمان ... لكن
المثال ما كاد يدخل داره ويلبس جسمه فراشه الناعم حتى ارتمى
ارتماء لا أمل بعدها فى يقظة قريبة ... وحان الموعد المضروب
عند منتصف الليل والصدى يحاول عبثاً أن يفيق صديقه المخمور ...
حتى أدركه اليأس وقال فى نفسه :

— أهي مشيئة الآلهة؟... أهو سوء حظي ا... ما العمل
الآن؟ ... الوصيفة تنتظر ... وهذا الحيوان في سباته ١٩ ... أكل
شيء ضاع ١٩ ...

وفكر ملياً... ورأى الموقف بوضوح ... أما تماها فلا أمل
فيه الآن ... ولكن أيترك الوصيفة في الانتظار طول الليل دون
جدوى؟ ... أم يذهب إليها ويخبرها بما حدث ... ولماذا
لا يذهب؟ ... بل ولماذا لا يلقى هو النظرة الأخيرة على حبيبته
المسجاة في تابوتها ... تلك النظرة التي ستطبع ولا شك تماها في
رأسه هو إلى الأبد ، أقوى وأصدق من أي تماها من الحجر ا...
وارتدى هو ثوب الكاهن... وترك صديقه مرتعياً على فراشه ،
وغادر الدار إلى مكان السرداب ...

وهناك وجد الوصيفة منتظرة في الموضع المتفق عليه ... فلما
رأته وحده تغير وجهها وبادرت تسأل :

— جئت بمفردك؟ ...

فأجاب باقتضاب :

— خائف نصحك وشرب ...

— وأين هو الآن؟ ...

— نحرور في فراشه ...

فتحركت مديرة ظهرها تريد الانصراف لشأنها ، وقد فهمت
أن الأمر قد انتهى عند هذا الحد ... ولكن صانع المراكب
استوقفها :

— دعيني أبا أنظر إليها ...

— أجننت ؟ ...

— أتوسل إليك ...

— وما غرضك أنت من ذلك ؟ ...

— نظرة واحدة ... أخيرة ...

— أفى عقلك مس ؟ ...

فأمسك بيدها كما يمسك مخلب الصقر بالحمامة، وقال بصوت آمر
حاسم أجش مخيف :

— قوديني إليها ...

ودفعها أمامه ... فلم تجد بداً من الطاعة .. فشئت به في المسالك
المظلمة الطويلة لهذا السرداب الخفي ، إلى أن بلغت نهايته ، فطرت
بيدها جانباً من الجدار ، وإذا بمجر كبير ينفرج عن باب يؤدي
إلى قاعة متسعة مزينة بالنقوش مضادة بمصاييح مستترة في كوات
بالحيطان وخلف الأعمدة ... ولم يكن بالقاعة أحد فقد غادرها
السكرنة منذ قليل ... وكان لها باب كبير مغلق ، وقف عليه الحراس

من الخارج .. ولم يجد صانع المراكب في القاعة ما يلفت نظره المعتاد على هذه الأمكنة المقدسة ، ولم يحاول أن يبحث ببصره هناك إلا عن شيء واحد هو : التابوت ... وقد وجدته موضوعاً فوق مصطبة من الحجر في صدر المكان ، وقد سلط عليه نور خفي ، يوحى إلى الناظر أنه منبعث من إشعاع خشبية المظلي بالألوان أو منبعث من ذلك الجسد المسجي داخله ... ووقف صانع المراكب جامداً أمام التابوت لحظة ... إلى أن ذهب عنه الروع فديده إلى غطاءه الخشبي ، يريد رفعه ، فتعلقت بذراعه الوصيفة تحول بينه وبين ما يريد ، فتخلص منها. وتقدم إلى الغطاء بذراعيه القويتين فكشفته ، وظهر من تحته جسد الملكة ملفوفاً في الأشرطة البيضاء ... قد سمر الصانع في مكانه وارتعد ... ودق قلبه دقات سريعة ... وكان رأس الملكة ككل جثمان مخفياً في اللغائف .. فتجلد ومد أصابعه لينحى الأربطة عن وجهها ، فجذبتة الوصيفة بعيداً وهي تهدر من الغضب هديرأ مكتوماً :

— كفف عن هذا ! ... كفف عن هذا ! ... أهبها الوحش
الناش للقبور ! ... أخرج وإلا صحت ! ...

فأسرع ووضع كفه على فمها ... فقارمته ... وأرادت
الإفلات والصياح ، فقبض على عنقها ... وأذهله الموقف عما

فعل ... ولم يدر هل ضغط بقبضته أو لم يضغط ... ولم يقدر
مدى قوة أصابعه ... كل ما رءاه هو أنها سقطت من بين يديه على
الأرض ... فوقع في الحيرة للحظة ... لكنه تذكر ما جاء من
أجله ... فترك الوصيفة في مكانها ملقاة ، واندفع إلى الملكة المنحطة
فحل الأربطة عن رأسها ، وانكشف وجهها الجميل الشاحب ، وقد
زاده صفاء الموت حسناً... أين المثال الذي يستطيع صب هذا الجمال
في حجر ؟ ... هذا ما دار في ضمير العاشق الذاهل وهو يتأمل هذا
الوجه الإلهي ... ولم يكن في تلك اللحظة الفريدة يتأمل بوعى
عاقل ... فقد كف عقله عن الحكم والتحكم ... إنما هو شعور
بملاكيانه كالإشعاع المدمر ... ولم يستطع أمام هذا الجمال أن
يتقدم أو يتأخر ... جمده في مكانه ، وأيقن أن من المستحيل عليه
الإنصراف الآن ... قوة خفية تربطه إلى هذه الملكة المنحطة ...
لا فرار منها ولا فكك ... إما أن يدفن معها أو تعيش معه ...
وهنا لمعت في أعماقه فكرة ولم يتردد عن تنفيذها ولم يحجم ، وهل
يتردد الإنسان عن انتزاع الروح التي بها يحيا من أى مكان ...
وتقدم من ساعته إلى الجثمان المنحط فتزع عنه اللثام ورفعته من
التابوت ودثره في رداءه واحتضنه بين ذراعيه وأراد أن يمضى به
دون وعى من حيث جاء ... فعثرت قدمه بالوصيفة الملقاة على

الأرض ... فثاب قليلا إلى رشده ... ورأى ما هو فيه من حرج ...
أذهب بالملكة ويترك التابوت هكذا فارغاً ، والوصيفة هكذا
ملقاة ؟ ... إن الدنيا كلها ستقوم ونقعد بعد قليل ... وساورته
الأفكار المتضاربة .. ماذا يفعل ؟ ... أمضى ؟ ... أراجع ؟ ...
وخطر له خاطر ... لم يتردد هذه المرة أيضاً في تنفيذه على الفور ...
وأسرع إلى الأربطة البيضاء فالتقطها ولف بها جسم الوصيفة
ورأسها ، ثم أرقدها في التابوت موضع الملكة ...
وحمل الملكة على كتفه وخرج بها من السرداب ...

(٥)

طلع الفجر ... وبدأت مراسم الاحتفال الديني بحمل التابوت
إلى المقبرة الملكية ... فاحشد الكهنة ... وحضر فرعون وأسرته
وعلمت الترانسل ... وقدمت القرابين ... وألقيت نظرة أخيرة
على الجسد الملفوف في الأربطة ، لا ترى منه شعرة ، وأحكم
غطاء التابوت ، ثم نقل إلى القبر السرى الذى لا يعرف مكانه
غير أشخاص معدودين ... وفرغ القوم من أمر الجسد ، وانجسوا
إلى العناية بمصير الروح ... فاقترب الكاهن الأكبر من مركب
الشمس الذى أعد للملكة فباشر المهمة المعهودة ... وقام بالطقوس
المعتادة - ونطق بالكلمات الدينية ، والتعاويذ السحرية ، ثم نهض

يعلن إلى الملائك : أن مركب الشمس قد تحرك حاملاً روح الملكة
المقدس نحو السماء ، وأنه يسبح الآن في الفضاء ، تحف به أنعام
التراتيل والغناء ...

(٦)

في تلك اللحظة ، كانت الملكة في مركب حقاً . . . ولكن
ليس مركب الشمس ، بل مركب في النيل ، يسبح بها إلى الضفة
الأخرى ... كان جسدها المخنط محتفظاً بطراوته ولدانته ونضارته ،
وأريج العطور من حولها منتشراً ... وكانت موضوعة في مقعد
المقدمة وضع الجالس المتكىء ... وأمامها جاس سارقها صانع
المراكب يضرب بمجدافيه صفحة الماء ... ويرنو إليها ويقول :
— تلك هي الزهرة التي طالما حللت بها ... معك ! ... نعم ...
أنت الآن هنا معي في مركبي ! ... يا للسعادة ! ... ترى ماذا كنت
تفضلين ؟ ... هذه الزهرة معي في مركب النيل ؟ ... أو تلك الزهرة
الأخرى بمفردك في مركب الشمس ؟ ...

(٧)

أفاق المثال من سكره في الصباح ، فوجد نفسه بثياب البارحة
في فراشه ... ففرك جبينه محاولاً التذكر ... ولم يلبث أن أدرك
ما حدث ... فقام وخرج باحثاً عن صديقه وخطيبته ، ليعبر لها

عن أسفه... أما الخطيبة فلم يكن من السهل مقابلتها في ذلك اليوم...
فقد شاهد القصر هاجماً مائجاً بالكهنة والحراس ومعدات
الاحتفال... وأما الصديق فلم يجد في الحان ولم يصادفه في أى
مكان... وخطر له آخر الأمر أن يبحث عنه في دار له مهجورة ،
في الضفة الأخرى من النيل كان قد تركها لبعدها ، وجعل منها
اليوم شبه مخزن لأخشابه وأدواته ونماذج مراكبه الشمسية ...
فعبث النيل إلى تلك الدار ، ولم يكند يقترب منها ، حتى سمع شبه
همس وهممة ومناجاة... فطرق الباب... فلم يفتح سريعاً ... فأعاد
الطرق ، وانتظر وقتاً أكثر قليلاً مما ينبغى في مثل هذا الحال ،
وإذا الباب يفتح بجزر ، ويطل منه رأس صديقه ، فما أن يراه حتى
يتغير وجهه ... ولكنّه يتهاسك ويخرج لإياه ، متحاشياً دعوته إلى
الدخول ... وظن المثال أن هذا الاستقبال الفاتر أمر طبعى ،
بعد أن أضع على صديقه فرصة البارحة يسكره... فتبادر يقول له :
— إنى فى شدة الأسف ...

فلم يبد على الصديق أنه فهم أو تذكر ... فقد قال متسائلاً
ببساطة من لا يحمل مرارة ولا عتبا :
— لماذا ؟ ...

فخلق المثال فى وجه صديقه ، فلم يجد به إلا أثر القلق

والارتباك والرغبة في غلق باب الدار والابتعاد بالضيف عن
عنتيته ... فقال له مازحا :

— أليس عندك هنا ما يشرب ؟ ...

فقال صانع المراكب في شبه ارتياح :

— لا ... لا ... هذا مكان مهجور كما تعلم ... فلنذهب عنه ...

فلنذهب ... لقد جئته اليوم لأحضر بعض الخشب ... فلنلقاها
في الحان الليلة ... إذا شئت ... في الحان ... في الحان ...
إلى اللقاء ! ...

(٨)

وفي ذلك اليوم وقع في ساحة المعبد حادث غريب .. فقد أقبل
رجل من عاة الشعب يجرى ويصيح معلناً أنه شاهد بعينه في
السماء قرصاً طائراً يشع نوراً قوياً أخضر اللون ، ما يشك في أنه
مركب الشمس الذي يحمل روح الملكة الشسابة في رحلتها
السمارية ... واجتمع الناس حوله واشتد اللغط ... وتفاقم الجدل ...
وبلغ الأمر مسامع الملك ورجال الدين ... فجاءوا بالرجل
واستجوبوه فأصر مؤكداً :

— رأيت بعيني ! ...

وجاء فرعون بكبير الكهان وسأله :

— أيمكن لمركب الشمس أن يرى في السماء بالعين؟ ...
فأجاب السكاهن بلمهجة قاطعة :

— مستحيل ...

— وما القول فيما يقرره هذا الرجل؟ ...

— إنه كاذب أو مخدوع ... ولا يعقل أن يظهر في السماء
لأعين العامة ، المركب الذي يحمل روح تلك الملكة الشابة ...
ولا تظهر قبل ذلك المراكب التي تحمل روح فرعون الكبير
والدكم أو الفراعين العظام من أجدادكم ! ... هذا رجل كاذب خادع
يجب أن يموت ! ...

— ألا يمكن أن يكون هذا المركب الطائر ذو النور الأخضر
لأحد الآلهة؟ ...

— لو كان لأحد الآلهة لآته عيوننا نحن الكهنة لا عين رجل
من عامة الشعب ! ...

— ولماذا لا تقول أيها السكاهن الأكبر إن سحر استطاع
آخر الأمر أن يحدث هذه الأعجوبة ...

— سحري؟ ...

لفظها كبير الكهنة متمهلاً متأملاً ... أيقبل هذا التفسير مع
ما فيه من فضل يغرى بالزهو أم يرفضه ؟ ... إذا قبله فقد يطالب

عقياً بعد يظهار مراكب الشمس في السماء إظهاراً مرئياً للعيون ...
وهو مالا قبل له به ... الأضمن له إذن أن يرفض ... وأن يبقى
سحره في منطقة الروح وحدها ... وعندئذ صاح :
— كلا ... كلا ... إن هذا ليس سحري ... ولكنه سحر
المتأمرين على ديننا القديم ... هذا الرجل يجب أن يموت ! ...

(٩)

وفي ساحة الموت ، وقف الرجل أمام قضائه من الكهنة
بتردد صائحاً :

— رأيت بعيني ا ...

فقال له القضاة :

— أنكرك الروح ؟ ...

فقال بإصرار :

— لا أنكرك الروح ... ولكني رأيت الواقع ا ...

وإن الإصرار حتى الموت له دائماً قوة السحر ، فهو يخلق
أحياناً الإيمان في النفوس ... وكان لموقف هذا الرجل الناهض
من بين الشعب ليتحدى القوة الهائلة الممثلة في فرعون والكهنة ،
تأثير في الناس ... فقد تهاومت جماعة منهم مؤمنة بما يقول :
— لا شك أنه صادق ... إنهم سيقتلونه لأنه رأى ما لم

يستطيعوا هم أن يروه ...!

(١٠)

مضت أيام والمثال يبحث دون جدوى عن خطيبته الوصيقة... وسأل عنها في القصر؛ فقبل له : ما من أحد رآها منذ اليوم الذي دفنت فيه مولاتها ... وليس هذا بغير في نظرهم من وصيقة أمينة ، يأبى عليها الوفاء أن تخدم غير ملكتها ، أو تبقى في مكان ضمهما معاً ردها من الزمن ... وامكن أين ذهبت ؟ ... وهل يطول اختفاؤها حتى عنه هو ؟ ... إنه لم يرها منذ الساعة التي تم فيها الاتفاق على اللقاء عند السرداب ... ومن أجل صديقه ... وهذا الصديق أيضاً ما خطبه ؟ ... ماذا دهاه ؟ ... إنه يهرب منه الآن على نحو مريب ... وإن سلكه معه كان حتماً غريباً يوم ذهب إليه في داره المهجورة ... ما من شك في أنه عمل على إبعاده عن تلك الدار ... لماذا ؟ ... نعم ... إنه يذكر جيداً الآن ما سمع قرب الباب ... تلك المهمة ... تلك المناجاة التي كان يصل همسها من الداخل ... ترى من كان بالدار وقتئذ مع صديقه ؟ ... أمى امرأة ؟ ... يا للويل ! ... من تكون ؟ ... أتراها هي ؟ ... أتراها خاتمه مع الصديق ؟ ... لم يطق تلك الفكرة ! ... وعزم على أن يدم الدار ... وقام لساعته وعبير النيل إلى الضفة الأخرى ،

ومضى توأ إلى دار صديقه، وطرق بابها طرقا شديداً، فلم يجبه أحد ... فدفع الباب بعنف فافتح ... ودخل ... فلم يجد أحداً داخل الدار ... غير أن عينه لمحت خلف أحد المراكب المسندة إلى الحائط باباً صغيراً يؤدي إلى حجرة مفروشة ... فداف إليها وإذا هو يتسمر في مكانه، وقد جمد الدم في عروقه ... فقد وجد نفسه أمام المملكة الشابة متكئة على فراش وثير ... وثاب إلى رشده بعد قليل، وطافت برأسه الخواطر سراعا ... وأدرك ما يمكن أن يكون قد حدث ... ولسكن السؤال الرهيب هو :
— من التي حملوها في الثابوت إذن، ووضعوها في المقبرة ؟ ...
ولم ينتظر جواباً ... وخرج من الدار كالمصعوق ...

(١١)

لم يدرك المثال ماذا يفعل إزاء كل هذا ؟ ... ومشى في الطرقات يسائل نفسه كالخجول : من المدفونة في قبرها ؟ ... أين اختفت خطيبته ؟ ... وهل بين الأمرين علاقة ؟ ... أيمن أن تكون المدفونة هي ؟ ... ياللهول ! ... وكيف دفنت هكذا ؟ ... ولماذا ؟ ... مهما يكن من أمر فلا بد من فتح المقبرة ... فالمملكة ليست راقدة فيها ... يجب أن يذهب إلى فرعون وإلى الكهنة وصيحه :
— هلموا ! ... هلموا ! ... المملكة ليست في المقبرة ... واسكنهم

سيقبضون عليه ويقولون له : كيف عرفت ؟ ... فماذا يجيب ؟ ...
أيدلم على دار صديقه ويوقع به قبل أن يتبين حقيقة المدفونة ؟ ...
لا ... لن يفعل ذلك ... فليقل إنه رأى في الحلم أحد الآلهة يخبره
بهذه الحقيقة ...

واتجه من القور إلى كبير الكهان وأعلن إليه الأمر . . .
فنهض صائحاً :

— ماذا جرى اليوم ١٩ ... كل الناس يرون الآن الآلهة
إلا نحن الكهنة ١٩ ...

ثم التفت إلى المثال مهدداً :

— أتعرف عاقبة هذا الإدعاء والكذب ؟ ...

فلم يتردد المثال وقال باطمئنان :

— الموت ... وأنا مستعد له ، إذا اتضح كذبي ... والأمر

بسيط ... افتحوا المقبرة تعرفوا الحقيقة ...

وقبل فرعون والكهنة هذا التحدى ... وفتحت المقبرة ...

وكشف غطاء التابوت ... وإذا الجميع أمام منظر تقشعر له

الأبدان ... فقد شاهدوا أسنان امرأة برزت من بين أربطة

الوجه .. وكأنها كانت تجاهد في تمزيقها حتى ماتت عليها ...

وجرد الجسد من لفائفه فإذا هو جسد الوصيفة ... وبهت

الجميع . . . وصاح فرعون :

— أين الملكة ؟ ...

وأفاق المثال من ذهرله وبخيمته وغيظه المكتوم ... وأدرك

جريمة صديقه فرقع رأسه قائلاً :

— هناك فى الضفة الأخرى .. دار صانع مراكب الشمس ...

(١٢)

فى تلك الأثناء كان صانع المراكب قد عاد إلى داره ، فوجد

الباب مفتوحاً ، وعلى العتبة آثار أقدام ، فتسلطه الخوف ، وخيل

إليه أن أمره قد انكشف ، فأسرع وأعد مركبه ، وحمل الملكة

وأزعم الرحيل والهرب ... وكان الليل قد أقبل ، فاتخذ منه سترأ

ودرعاً ... واشتد فى التجديف منطلقاً بمركبه نحو الجنوب ...

(١٣)

وجام الحراس والكهنة إلى الدار ... وقتشوها فلم يجدوا فيها

أثراً لأحد ... فالتفت أحدهم إلى المثال وصفعه قائلاً :

— أيها الكاذب ؟ ... أين الملكة ؟ ...

أنت سارقها وستلقى جزاءك ا ...

وإذا أخذ الصيادين جاء يقول :

— أبصرت رجلاً يحمل جسد امرأة فى قارب ويسرع فى

النيل نحو الجنوب ...

فانطلق الحراس والسكينة إلى رماكبهم حاملين المشاعل المضئمة
في أثر الملائكة المسروقة ، وكأنه موكب النور يشع روحها في رحلة
السماء ... وأبصروا آخر الأمر المركب الهارب ، فاشتدوا
نحوه ... واستدار صانع المراكب ينظر خلفه ، فرأى القصاص
يدنو منه ، وأيقن بالهلاك ... فترك المجذاف ، وركع أمام الملائكة
الموضوعة أمامه وقال :

— آن لنا أن نفرق ... شكراً لك أيها الحبيبة على ما أعطيتني
من لحظات سعادة ... ان أستبقيك طويلاً هاهنا ... ولن أحول
بينك وبين سمائك الأبدية ... أما أنا فإلى الظلماء التي تنتظرني ...
وداعاً

واثم يدها بخشوع ... ثم قام منتفضاً وألقى بنفسه في الماء ...
فالتهمته التماسيح ...

(١٤)

أعيدت الملائكة إلى تابوتها ... وساكن المشال أثار مشكلة حيرت
السكينة ... فقد قال في جموع الشعب إن الوصيفة قد ارتفعت
بروحها فوق مركب الشمس بدلاً من الملائكة ... فقدموه إلى
المحاكمة ... وقال له الكاهن الأكبر :

— أتدرى ما هو عقابك؟ ...

فقال الممثل :

— أدرى ما هو أهم من عقابي؟ ... تلك الحقيقة التي اعترفت بها أنت أيها الكاهن الأكبر . . . أتتكر أنك قمت بمراسيمك الدينية ونطقت بكلماتك السحرية نحو الجسد الذي رقد في التابوت؟ . . . ثم أعلنت أنه ارتفع على مركب الشمس إلى السماء الأبدية؟ ... هذا الجسد كان لمن؟ ... ألم يكن للوصيفة؟ ...

فقال الكاهن بحدة :

— لا يمكن أن يرتفع روح الوصيفة إلى السماء ...

فقال الممثل :

— إذن سحرك كان باطلا ...

فارتبك الكاهن قليلا وأطرق السكينة من حوله حائرين . . . ذلك أن الطقوس التي أجريت إما أن تكون صحيحة وبهذا ترفع روح الوصيفة إلى السماء ، وإما أن تكون باطلة لا ترفع أحداً ... والكاهن يصر على أنها صحيحة ... وأنها رفعت بالفعل ، لأنه أعلن ذلك يوم الاحتفال بالدفن ...

فكر الكاهن ملياً ثم قال :

— إن السحر صحيح ، وقد رفع روح الملكة ، وهذا ما أعلنته

من قبل وأعلنه اليوم وأؤكدده ... لأن روح الوصيفة لا يمكن أن
يرفع إلى السماء على مراكب الشمس ...

فصاح المثال :

— ولم لا ؟ ...

فقال السكاهن بعنف :

— لأنها من الشعب ... ومراكب الشمس لا تحمل غير

الملك ...

— أو لا يمكن لأبناء الشعب أن يرتفعوا يوماً على تلك

المراكب كملك ؟ ...

— لا ...

فلفظ المثال صيحة ثائرة :

— هذا ظلم ! ... هذا ظلم ! ...

فارتفعت أصوات الإستنكار من السكينة ، وتمايلوا يتهامسون

ويقررون أن هذا الثائر قد فاه بأمر عظيم ؛ لا ينبغي أن يظل

بعده في الأحياء ...

وحكموا عليه بالموت ...

واجتمع الناس في ساحة الموت ينظرون إليه ، وهو باسم

الشجر ، هادىء النفس ، فذكرهم منظره بمنظر ذلك الرجل الذى

أعدم بالأمس ؛ لأنه رأى شيئاً أنكره الباقون ...
وقال بعض الناس لبعض ساخرين :
— إنه يريد لروح الوصيفة خطيبته أن يحمل على مراكب
الشمس التي تحمل الملوك ...
وقال البعض :

— لا تسخروا منه إذا أراد لوصيفته ذلك ... فعنى هذا أنه
يريد لنا جميعاً ذلك ! ...
— لنا جميعاً !؟ ...

ونظروا إليه وهو يلفظ آخر أنفاسه ، فوجدوا على فمه
ابتسامة صافية رضية ، وكأنه يجيبهم مبشراً ! ...
— نعم ... ولم لا !؟ ...

* * *

وهكذا تنتهى هذه القصة التي لم يذكرنا لنا التاريخ عنها شيئاً ...
فموتها يخط بحروفه ونقوشه على الأحجار غير أخبار الملوك ...
أما موت هذين الشهيدين من شهداء مراكب الشمس فلم ينقش
خبره على حجر ، لكن نبتت بذرته في القرون والأجيال ،
تروى بالدم ، وتنمو وتمتد لشجر فصيلة الرجال المطالبين بحق
الرأى وحق الشعب ...

فهرست

صفحة	
٧	مقدمة
٩	ليلة الزفاف
٢٣	طريد الفردوس
٦١	لا كرامة لنبي في وطنه
٦٨	الدينا رواية
٨٦	مدرسة المخفلين
٩٨	الشيخ البليسي
١٠٥	إبليس ينتصر
١١٠	نصيب
١٣٦	كليوباترة وملك
١٥٤	موقف حرج
١٦٢	مراكب الشمس

UNIVERSITY OF ALEXANDRIA
Library of Alexandria
0321565

